

www.kotobarabia.com

رواية

الأغنية الدائرية

د. نوال السعداوي



www.kotobarabia.com



الأغنية الدائرية

الاهداء

الى طفلي المجهول ، الذي ولدته وحدي منذ قرون ،
وتركته بالليل في حوض الجسر، وفي الصباح وجدت
مكانه شجرة خضراء باسقة ، جذرها في الارض ، ورأسها
في السماء ، شامخة كالالهة الاثني القديمة ، ربة الحياة
والموت •

اليه والى كل الشجرات الباسقات في العالم ، والى
كل أطفال الآلهة اهدي هذه القصة •

نوال السعداوي

كانت دائرة من اجساد الاطفال الصغيرة تلف وتدور
حول نفسها امام عيني ، كل يوم ، وفي اي وقت انزل
فيه من بيتي ، وصورة غنائهم الحاد الرفيع يدور مع
حركة اجسادهم في اغنية واحدة ، لها مقطع واحد ،
يتكرر في دورة متصلة لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد
سمته عبدالصمد
سأبته ع الانايا (١)
خطفت راسه الحدايا (٢)
حدايا حد...
يا بوز القرد !
حميدة ولدت ولد

(١) الانايا : القناة

(٢) الحدايا : الحناة

سمته عبدالصمد
سابتة ع الاثايا
خطفت راسه الحدايا
حديا حد...
بابوز القرد
حميده ولدت ولد
سمته عبدالصمد

ويكررون الاغنية • ما ان يصلوا الى الجملة الاخيرة
حتى تأتي الجملة الاولى ، وما أن تنتهي الجملة الاولى
حتى تأتي الاخيرة • ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ،
فلا يمكن للاذن ان تعرف بداية الاغنية من نهايتها، ولا يمكن
للعين ان تعرف بداية حركتهم من نهايتها • فهم كعادة
الاطفال يسكون بأيديهم بعضهم البعض على شكل
دائرة مغلقة •

ولكن لا بد لي ان أبدأ القصة ، فكل شيء له بداية ،
لكن نقطة البداية في هذه القصة لا يستطيع
تحديدها • فالبداية لا تبدأ بنقطة محددة ، لان البداية
في حقيقة الامر غير موجودة او ان البداية والنهاية يتصلان

في خيط واحد دائري من الصعب تحديد اوله من
آخره .

ومن هنا صعوبة البدء بشيء ، وعلى الاخص اذا كان
قصة حقيقية . اي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة
غاية الدقة . والدقة الدقيقة تقتضي من الكاتب او
الكاتبة ان يراعي والا يهمل اي نقطة . ان نقطة واحدة
قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة
العربية . الذكر يصبح انثى بسبب نقطة او شرطة ،
والبعل بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا لا بد ان توجد نقطة محددة ابدأ بها .
والنقطة المحددة هي النقطة المحددة ، لا يسكن ان تكون
شرطة او دائرة ، وانما لا بد ان تكون نقطة حقيقية،
اي نقطة هندسية . وبمعنى آخر لا بد من دقة علمية في
العمل الفني الجيد الذي هو هذه القصة . لكن العالم
يفسد الفن ، وهذا الافساد هو بالضبط ما اریده في هذه
القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق
الحياة الحية . واني لأصر على هذا التعبير « الحياة
الحية » اكتبه بسبق اصرار وليس من قبيل الصدفة . لان
هناك حياتين : حياة حية وحياة ميتة . والحياة الميتة

كالانسان الذي يمشي على الارض دون ان يعرق ، او دون ان يبول ، او دون ان ينبعث من جسده شيء فاسد .
الفساد والافساد والتفسد كلها اشياء ضرورية للحياة الحية ، وللانسان الحي . لا يمكن للانسان الحي ان يحبس بوله في مثاته الى الابد ، والا مات . حينئذ يستطيع ان يحبس فساده في الداخل ويصبح من الخارج جسدا ميتا نظيفا من الناحية العلمية . اما من الناحية الفنية فان الفساد المحتبس بالداخل اشد تفسدا من الفساد المنطلق الى الخارج . وهذه حقيقة او ظاهرة طبيعية لا تخفى على أحد ، فان رائحة الجسد الميت اشد سوءا من رائحة الجسد الحي .

خيّل اليّ (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بهركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل ان يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف

كان قد اصبح بالقرب مني • ورأيت وجهه • لم يكن
ضفلا ذكرا • كان اثى • لم اعرف عن يقين انها اثى ،
فوجوه الاطفال كوجوه العجائز لا جنس لها • وبين
الطفولة والشيخوخة مرحلة يضطر فيها الانسان الى
الاعلان عن جنسه بوضوح اكثر •

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ • كان
مألوفًا بدرجة اثارته دهشتي الى حدّ عدم التصديق •
فليس من المعقول ان يخرج الانسان من بيته في الصباح
ذاهبا الى عمله ، فاذا به يصطدم بشخص آخر ، ما ان
يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو ، وليس ايّ وجه
آخر •

اعترف ان جسدي ارتجّ ، نوع شديد من الذعر
يشلّ قدرة الانسان على التفكير • ومع ذلك فكرت :
يذعر الانسان حينما يرى وجهه وجها لوجه ؟ لعلّها
الغرابة الشديدة ، او لعلها الالفة الشديدة . حينئذ يختلط
على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة متشابهة
الى حد التماثل ، فالاسود يصبح ابيض ، والايض اسود .
ومعنى ذلك ان يواجه الانسان بعينه المفتوحتين حقيقة
انه أعمى •

فركت عيني بأصابع مرتجفة • ونظرت في وجهه
مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة وخامسة وربما لا زلت انظر
في وجهه حتى هذه اللحظة ، وفي كل لحظة ، كأنه يلازمي
كظلي ، او يلتصق بي كقطعة من جسدي ، كذراعي
او ساقي •

والذعر بطبيعته يولد الكراهية • لا أنكر أنني
كرهت هذا الوجه • وقد يظنّ بعض الناس أنني لست
صادقة فيما أقول ، ويتساءلون كيف يمكن لانسان ما أن
يكره وجهه ، او جسده ، او قطعة من هذا الجسد •
وهؤلاء الناس هم ولا شك على حق • انهم اقدر مني على
رؤيتي • ليست هي محنتي وحدي ولكنها محنة كل
انسان • فالآخرون يرونه اكثر مما يرى نفسه • يرونه من
الامام ، ومن الجانب ، ومن الخلف • يرونه من ظهره •
اما هو فلا يرى نفسه الا من الوجه ومن خلال مرآة •

المرآة تظل هناك دائما ، قائمة كالشخص الاخر بين
الانسان ونفسه • ومع ذلك فأنا لا اكره المرآة ، بل اكاد
احبها حبا شديدا • احب النظر فيها طويلا ، والحملة •
احب ان ارى وجهي • الحقيقة اني لا املّ النظر الى
وجهي • فهو وجه جميل ، اجمل من اي وجه آخر رأيت

عاش ظهر الارض • وفي كل مرة انظر اليه اري جسلا
جديدا يكاد يسحرني •

قد لا يستغرب بعض الناس هذا الصدق الشديد ،
فالصدق الشديد يصبح مقززا في بعض الاحيان ، او في
كل الاحيان • ولكني عاهدت نفسي على ان اقول
الصدق • أنا ادرك ان الاستمرار في الصدق مجهد ،
يتطلب دائما مزيدا من الجهد والتضحيات • كأن يضحي
الانسان بأن يكون جميلا او مقبولا في كل لحظة ، وان
يتحمل احيانا درجة من القبح ، في نظر الناس ، اعترف انه
قد يكون قبحا شديدا يصل الى حد التقرز • ولكن هذا هو
الكفاح المطلوب في العمل الفدائي وفي العمل الفني
الجيد ، الذي اكتبه الآن •

بهرني في الوجه بالذات العينان ، فأنا اعشق العيون •
واعتقد (وقد يكون اعتقادي بغير علمية معترف بها)
ان عيني الانسان جهاز حساس ، بل انه اكثر اجهزته
حساسية ، يليه الجهاز التناسلي بطبيعة الحال • شدتني
الى العينين نظرة لها لمعة متحركة في كل الاتجاهات
والزوايا كاشعاعات فص " الماس الحقيقي • وهي نظرة
محيرة فعلا • لانها ليست نظرة واحدة ، يستطيع

الانسان ان يحدد معناها ، نظرة حزن مثلا ، او نظرة فرح ، او نظرة عتاب ، او نظرة خوف ، ليست هي نظرة واحدة ، وانما هي نظرة متعددة النظرات ، وان بدت من السطح وحيدة النظرة ، الا انه سرعان ما تنطوي النظرة الاولى وتتلوها الثانية والثالثة كصفحات كتاب و كطيات نسيج رقيق وضعت طبقاته الطبقة فوق الطبقة ...

انشغلت بالعينين عن بقية ملامح الوجه • لم ار الانف ولم ار الخدين ولا الشفتين ولا اليد الصغيرة التي ارتفعت في الهواء ولوحت لي بحركة ناعمة مألوفة كأنها تعرفني •

سألتهما : ما اسمك ؟

قالت : حميدة

وارتفع صوت الاطفال بحركتهم واغنيتهم الدائرية بغير بداية او نهاية •

حميده ولدت ولد
سمته عبد الصمد
سابتة ع القنايس
خطفت راسه الحدايا
حد يا حد

يا بسوز القرد
حميدة ولدت ولد

ضحكت كمادة الكبار حين يداعبون الصغار وقلت:
- يغنون لك ؟ ..

لكنها لم تردّ . لانها كانت قد اختفت من امامي
في اللحظة التي اهتز فيها رأسي اثناء ضحكي . استطعت
فقط ان المح ظهرها الصغير المحنني بعض الشيء وهو
يختفي داخل باب خشبي داكن اللون علقت فوقه يد آدمية
خشبية كمطرقة .

لم امسك المطرقة كعادة الغرباء حين يدقون الابواب
المغلقة . كنت اعرف طريقي ، رغم الظلمة الشديدة التي
تقبع دائما في مداخل تلك البيوت ، ولان الشمس ايضا
كانت قد غربت منذ زمن طويل . عن يميني رأيت رأس
الماعزة يطل من خلف الجدار ، وعن يساري كانت هناك
عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء . تعثرت في العتبة ككل
مرة ، وكدت اسقط على وجهي لولا خفة جسي المعهودة
وقدرته العجيبة على الاحتفاظ بتوازنه المختلّ .

ورأيتها نائمة فوق الحصيرة ، مستغرقة في النوم .

جفناها نصف مغلقتين ، وشفتها نصف مفتوحتين ،
تتنفس من فمها انقاسا عميقة كأنفاس الاطفال العميقة ،
وذراعاها متكورتان حول رأسها ، ويدها اليمنى
مطبقة على قرش او تعريفة ، وجلباها الطويل انحسر عن
ساقها الناعمتين الرقيعتين حتى الركبتين ، ورأسها
الصغير يهتز بحركة ضييلة غير مرئية ، وفكاها الصغيران
يضغط احدهما على الآخر ضغطة هيئة توجي بلذة
تذوب في فمها من قطعة الحلوى مختبئة تحت لسانها .

كان الليل مظلمًا بغير قمر ، والمصباح المشتعل منذ
اول الليل احترق شريطه ، او نفذ زيتته ، فاصبح ذؤابة
ضئيلة ، اطفأتها نفحة هواء قوية ، وساخنة ، اندفعت
فجأة من ناحية الباب ، الذي لم يكن بابا ، فالغرفة لسم
يكن لها الا عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء ، لكن
ذؤابة الضوء كانت قد انطقت فأصبحت الظلمة شديدة
الارض كالجدار كالسقف . لا شيء يظهر في السواد
الداكن الا سدّ كبير يسدّ فتحة الباب تماما فيما عدا
ثقبين صغيرين مستديرين يتوسطان الرأس ، وينفذ منهما
ضوء أصفر تشوبه حمرة بلون جذوة النار حين تنقد .

لم يكن الشفق قد طلع بعد في تلك اللحظة

الساقطة ما بين آخر خيوط الليل واول خيوط النهار ،
فنعشرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض
الشيء • لكنه استعاد توازن جسده الطويل العريض ،
ووثب كالفهد على اطراف اصابعه المطاطية ، ثم سار على
مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (١)

وبالثقين اللذين ينفذ منهما الضوء المشوب بالحمرة
حدد مكانها فوق الحصيرة ، كعيني قط وحشي لهم
تستأنس حدتهما وقدرة حدقتيهما على الاتساع في
الظلام • وحينما امتدت اصابعه الغليظة المفلطحة لترفع
جلبائها عن فخذيهما البيضاوين كانت لا تزال مستغرقة
في النوم استغراق الاطفال ، وقد تغير الحلم ، وذابت
قطعة الحلوى تحت لسانها ، وبدأ البائع يطالبها بالقرش ،
وفتحت يدها فلم تجد قرشا ، وامسك البائع الفظ
العصا وراح يجري خلفها •

كان جسدها خفيفا صغيرا يطير في الهواء كاجساد
العصافير ، وكان من الممكن ان تسبق البائع (لو كانت
عصفورا) لكنها احست فجأة وكما يحدث في الاحلام

(١) العذراء بلغة الريف .

تماما ان جسدها اصبح ثقيلًا كأنه تحجّر على شكل تمثال
تسمّرت قدماه في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديد
والاسمنت ، والفخذان اصبحتا من الرخام ، وكل فخذ
شدّت الى ناحية ، وتصلبت الساقان في الجو منفرجتين
كالمصلوب ، وضربات العصا تنهال بينهما بعنف لسم
تعرفه من قبل .

صرخت . لكن صوتها لم يطلع . يد كبيرة مفلطحة
سدت فيها وانفها فاخنتقت ، وادركت انها لا تحلم ، وان
جسدا كبيرا له رائحة التبغ ملاصق لجسدها . كانت
عينها مغمضتين ، لكنها استطاعت ان ترى ملامح الوجه ،
وتدرك انها تشبه ملامح ابيها ، او اخيها ، او عمها ،
او خالها ، او ابن خالها ، او اي رجل آخر .

وكانت حميدة تستيقظ كل صباح ككل الاطفال ناسية
احلامها ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفور ، تجري
الى امها ، وتشدو بصرخات الاطفال السعيدة حين يستقبلون
اليوم الجديد بجسم نام حتى شبع ، ومعدة خوت حتى
تفتحت شهيتها لكل شيء ، وان كان قطعة خبز مقدد
تكسر الاسنان اللبنية ، او شنفطة لبن من ضرع ، او قطعة
مش من قاع الزلعة .

ذلك الصباح استيقظت حميدة ككل صباح، لكن الحلم لم يتنس كالأحلام السابقة ، واصابع غليظة تركت آثارا حمراء وزرقاء على ذراعيها وساقيهما ، وضربات العصا لا تزال تؤلمها بين فخذيهما ، ورائحة التبغ لا تزال عالقة بجلدتها .

ظنت امها انها مريضة بالحمى ، فربطت رأسها بسنديل وتركتها راقدة فوق الحصيرة طول اليوم ، ونامت حميدة النهار والليل ، واستيقظت في اليوم التالي ، وظنت انها نسيت الحلم ، وانه ضاع في الزمن وتبخر في الهواء ، كأنما لم يكن ، فقفزت من فوق الحصيرة قفزتها المعتادة ، فيما عدا ثقل خفيف في ساقيهما سرعان ما راح حين ارتدت المريلة وجرت مع الاطفال الى المدرسة .

كنت استطيع دائما ان اميز حميدة من بين الاطفال ، فالمريلة من الدمور ، ولونها سميني فاتح ، عليها بقعة من الخلف كانت حمراء من ايام ، حين تسربت نقطة دم من سروالها الصغير الى المريلة وهي جالسة في الفصل . امها كانت تنبهها دائما لتحتاط للامر ، وان تضع القوطة الدمور بعناية بين فخذيهما ، فهي لم تعد طفلة صغيرة ، وكثيرا ما سمعت امها تقول : « في

مثل سنك تزوجت ولم يكن ثدياي قد ظهرا بعد » •

خجل كالعرق كان يندى جبهتها المستقيمة الصغيرة
حين تستدير وترى البقعة فوق المريلة ، فتجري على
اطراف اصابعها وتخلع المريلة وترتدي الجلباب الطويل ،
وتجلس الى الطشت ، وتغسل مريلتها الوحيدة ، ثم
تنشرها على الحبل في الشمس لتجف قبل اليوم التالي •

و ذات يوم اصبحت المريلة ضيقة ، بصعوبة ادخلت
فيها جسمها ، وبالذات من الامام ، عند بطنها • واستقرت
عينا امها على بطنها بنظرة غريبة لم ترها من قبل ،
ومخيفة الى حد ان رعدة خفيفة سرت في جسدها
الصغير • والتفت اصابع امها الكبيرة حول ذراعها النحيل
وصاحت :

— اخلي المريلة •

خلعتها وارتدت الجلباب ، وجلست في الشمس بجوار
الحائط • كانت امها تناديهما لتساعدتها في العجين او
الخبز او الطبخ او كنس الدار ، او كان ابوها او خالها
او عمها يرسلها الى الدكان لتشتري دخانا ، او كانت
خالتها او عمتها تناولها طفلها الرضيع لتحمله عنها

حتى تعود من الحقل ، او جارتها كانت تناديهما من فوق
السطح لتملا لها الجرة من البحر ، او اخوها او خالها
كان يلقي اليها بجوربه وسرواله القذرين لتغسلهما •
وعند الغروب يلتف حولها البنات والصبيان من اولاد
الجيران فينزلون الى الشارع ويلعبون « المساكة » ، او
« عسكر وحرامية » ، او « الثعلب فات فات » او « حبة
ملح » ، او « حميدة ولدت ولد » •

أي شيء من ذلك لم يحدث في ذلك اليوم •
وتركوها وحدها جالسة في الشمس ، ولم تجد بدا من
التحديق في قرص الشمس طويلا • وحينما غابت
الشمس ظلت جالسة مكانها في الظلام ، جسدها الصغير
يرتعد • شيء ما تحسه ولا تعرفه ، شيء ما رهيب
يحدث من حولها ، في الظلام ، وفي الصمت ، وفي العيون ،
كل العيون ، حتى الدجاج الذي كان يلتف حولها ،
لم يقترب منها ، والقط الاسود الكبير الذي كان
يتمسح بها اصبح واقفا بعيدا عنها ، يرمقها بنظرة وجلة
من عينيه الواسعتين ، وباتتصابة من أذنيه الطويلتين
المدببتين •

سقط رأسها فوق ركبتيها وهي جالسة • وربما غفت

لحظة او عدة ساعات ، افاقت بعدها على اصابع طويلة
تمسك ذراعها • اتنفضت مذعورة ، وكادت تصرخ ، لولا
ان يد امها اصيحت فوق فمها ، وصوتها الخافت
اصبح كالفحيح :

— تعالي ورائي على اطراف اصابعك •

الليل مظلم بغير القمر ، والشفق لم يطلع بعد ،
وكل شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما
بين آخر الليل واول النهار قبل آذان الفجر ، وقدم امها
الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة
كبيرة، توشك ان تجري ، وحميدة خلفها ، تكاد تلمس
طرف ثوبها •

أرادت ان تفتح فمها وتسال امها عن السبب ، لكن
امها توقفت عند سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن
قضبان القطار • وراء هذا السور كانت تختفي حميدة حين
يلعبون المساكة • ناولتها امها طرحة سوداء •

وضعت حميدة الطرحة على رأسها فانسدلت فوق
عنقها وكتفيها وصدرها وبطنها وظهرها واصيحت
تشبه نساء القرية • فتحت فمها لتسال ، لكن صفارة
القطار جعلت جسد امها يرتعد ، رعدة عنيفة هزّت

الارض من تحتها ، وبعنف ايضا اندفعت قبضتها
الكبيرة في ظهر حميدة ، وقذفت بها ناحية القطار ،
وصوتها الهامس المنخفض كالفحيح :

— القطار لا ينتظر أحدا • اهربي ! •

اندفعت حميدة نحو القطار ، لكنها استدارت لحظة
قبل ان تركب ، ورأت امها واقفة في مكانها ، متسرة
في الارض ، ثابتة لا تتحرك ، والطرحة السوداء فوق
رأسها وكتفيها وصدرها ثابتة ايضا ، فلم يكن
صدرها في تلك اللحظة يتحرك ، ولا شيء فيها
يتحرك ، ورموشها ثابتة متجمدة ، كتمثال حفصي منحوت
من الحجر •

كان القطار يدخل المحطة ، برأسه الاسود الضخم
ينبعث منه الدخان ، وبعينه الوحيدة الكبيرة المضيئة بنور
قوي كشف المحطة ، وكشف حميدة وهي واقفة ، فاختبأت
وراء عمود • وقف القطار بعد ان اصطدمت عرباته بعضها
بالبعض ، واصططكت عجلاته الحديدية بالقضبان الحديدية
محدثثة صوتا عاليا فاضحا ، خيل اليها انه ايقظ كل
اهل القرية ، فاندفعت نحو القطار تخفي وجهها بذيل
طرحتها •

مدت قدمها اليمنى الصغيرة لتضعها فوق سلم
القطار ، لكن السلم كان بعيدا عن الرصيف ، ولم تكن
قد ركب قطارا من قبل ، فلم تصل قدمها الى السلم .

عادت بقدمها الى الرصيف . وتلفتت حولها في
ذعر . خشيت ان يتحرك القطار ولا تتركب . رأت بعض
الرجال والنسوة يركبون العربة الامامية فاسرعت ووقفت
خلفهم . راقبتهم وهم يصعدون السلم واحدا وراء
الآخر . كل واحد منهم كان ، قبل ان يضع قدمه على
السلم ، يمسك بيده اليمنى مقبضا حديديا على جانب
الباب لم تره من قبل . مدت حميدة ذراعها وامسكت
المقبض بكل قوتها ثم شدت جسمها فاصبحت قدمها
فوق السلم ، وصعدت الى الداخل .

جلست على اول مقعد قابلها ، ورأت جوارها نافذة
فأطلت منها . كان القطار قد تحرك ببطء ، وتصاب رأسها
خارج النافذة وهي ترى أمها لا تزال واقفة في مكانها ،
ثابتة لا تتحرك ، وطرحتها ورأسها وصدرها ورموشها
وكل شيء فيها جامد ثابت .

انفجرت شفتاها لتناديها ، لكنها تذكرت انها لم
تعد امها ، وانما هو تمثال الفلاحة القائم عند مدخل

انقرية منذ سنين لا تعرف عددها ، فقد رآته منذ ولدت ،
ولا بد انه كان هناك دائما قبل ان تولد .

كان رأسها لا يزال خارج النافذة ، لكن انفاسها
اصبحت تدخل وتخرج ، تلهث وهي جالسة في مكانها، ولاول
مرة تعرف ملمس دموعها فوق بشرة وجهها ، ومذاقها في
فمها . لكنها لم تتحرك ولم تمد يدها بطرف جلبابها او
كمّتها لتمسحها ، تركتها تنساب وتجري وتدخل
فمها ، ثم لعقتها بلسانها دون ان تنقلص في وجهها
عضلة واحدة ، ودون ان يخرج من فمها صوت ، ودون ان
يتحرك جفناها او تهتز رموشها ، وكل شيء اصبح
اسود ، وذاب القطار في السواد وامتزج بالليل ، كالقطرة
تذوب في جوف البحر .

في تلك اللحظة كان حميدو لا يزال راقدًا فوق
الحصيرة . كان نائمًا وعيناه مغمضتان ، لكنه كان يرى
عيني ابيه في الضوء الخافت ، واقفا بقامته الطويلة
كجذع شجرة كافور ضربت بجذورها في بطن الارض .

سرت في جسده الصغير برودة ثقيلة ، خدّرت ساقيه

وذراعيه ، بذلك الثقل الذي يصيب الاطراف اثناء الحلم
المزعج . وظل راقدا في مكانه لا يتحرك ، شاخصا نحو
ذلك الشبح الطويل الواقف الثابت بغير حراك ، وادرك
ان شيئا خطيرا قد حدث او سيحدث . كتم انفاسه
واختفى تماما تحت اللحاف المسود القذر . اصابعه
الصغيرة تشد الغطاء حول رأسه ، واذنه اليمنى فوق
الوسادة الصلبة ترتج من تحته بدقات قلبه ، تنبعث من
رأسه وليس من صدره .

توقع في كل لحظة ان تمتدّ الاصابع الطويلة وتشد
الغطاء عن رأسه ، وتستقر العينان الواسعتان في عينيه
تصب فيهما الشيء الخطير . لكن اللحاف ظل مشدودا
حول رأسه ، ودقات قلبه مسموعة في الصمت ، وحركة
صدره مرئية في الظلام ، حركة خفيفة نكاد تكون
غير مرئية ، كرؤوس الاشجار في ليل ساكن بغير نسمة
هواء واحدة ، وبغير قمر، والظلمة كاللحاف الاسود
تلف السماء والارض في تلك اللحظة الساقطة ما بين
اخر الليل واول النهار ، قبل ان تبدأ خيوط الفجر
وبزحف الظلام صاعدا ببطء ، كحوت ضخمة يسبح في
محيط لا نهائي ، ترقد في قاعة بيوت القرية الطينية
الصغيرة المتلاصقة ككوم من السباخ الاسود .

وحين فتح حميدو عينيه كان ضوء النهار يملا
الغرفة . وايقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز
من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع . كان اصداقاه
من اطفال الجيران يلعبون كعادتهم في الحارة الضيقة
المتددة امام البيوت ، يمسك كل واحد منهم بذيل جلاباب
الآخر ويصنعون قطارا يصفق ويرقص ، ثم يتفككون
ويلعبون المساقة ، يختبئون وراء اكوام السباخ ،
وفي الزرائب ، وخلف زير الماء ، وداخل فتحة الفرن .

رأى حميدة تجري وسط الاطفال ، وتختفي وراء كوم
السباخ . جلست القرفصاء حتى لا يظهر رأسها من
خلف الكوم ، فظهر فخذاها البيضاءوان يتوسطهما
شريط رفيع من الدمور الاسمر هو سروالها . خبأت
رأسها الصغير بشعرها الاسود الناعم في التراب حتى
لا يراها احد . لكن حميدو كان يراها ، وكان هو
« المساقة » هذه المرة ، فانطلق يجري نحوها مثيرا
بقدميه الحافيتين زوبعة من التراب .

ثبت عينيه على كوم السباخ ، متظاهرا بانه لا
يراه ، وسار على اطراف اصابعه بخطوات بطيئة حذرة ،
واستدار ليختفي وراء الكوم ، ثم وثب وثبة واحدة كالفهد،
وامسكها من شعرها بيده اليمنى . اما يده اليسرى

فقد امتدت بسرعة البرق واستقرت فوق فخذهما ،
وراحت اصابعه الصغيرة الصلبة تشد سروالها . لكن
حميدة رفسته بقدمها ، ونطحته برأسها ، كما تفعل في كل
مرة حين يمسكها المساقة ، واستطاعت ان تتخلص من
قبضته وجرت لتختبيء وراء كوم اخر .

لم تكن حميدة وحدها تلعب المساقة . كل البنات
والاولاد يلعبونها ، وحين تجري البنات ليختبئن ويجلسن
القرفصاء تتعري افخاذهن الصغيرة البيضاء ، وتظهر
سراويلهن الرخيصة القذرة كالشريط الرفيع الاسود
بين الفخذين ، يحاول المساقة ان يمسكه ويشده الى
اسفل ، لكن البنت تعرف كيف ترفسه بقدمها ، او بقدميها
الاثنتين ، وهو ايضا لا يستسلم ، وانما بقاومها
بقدمه ايضا ، او بقدميه الاثنتين . معركة صغيرة غير
مرئية ، فكوم السباخ يخبيء جسديهما الصغيرين ، لكن
الاقدام الاربع تطل من وراء الكوم ، صغيرة وناعمة لا
تعرف قدم البنت من قدم الولد ، لان الاقدام في سن
الطفولة كالوجوه ، لا جنس لها ، خاصة اذا كانت
اقداما حافية ، فالحذاء وحده هو الذي يحدد الجنس .

انكفاً على ظهره حين رفسته بقدمها ، لكنه نهض

بسرعة ، وكانت هي ايضا قد نهضت ، ورأى وجهها • لم تكن حميدة • تلفت حوله ، في وجوه البنات والاولاد • جرى الى البيت يبحث عنها في الزريبة ، او في فتحة الفرن ، او خلف زير الماء ، او تحت الحصيرة • خرج من البيت جريا يبحث عنها وراء اكوام السباخ ، خلف جذع الشجرة ، فوق النخلة ، في بطن جسر الترعة • أدبر النهار وهبط الليل ولم يعثر لها على اثر •

وقف في الظلام على جسر الترعة ، ظلّه الوحيد منعكس على صفحة المياه الراكدة العكرة • ظل طفل لا يزال طفلا ، لكن وجهه لم يعد كوجوه الاطفال الناعمة الملساء لا تعرف الذكر فيها من الاثني • لو كانت صفحة المياه ثقيلة كالماء العذب ربما اصبحت مرآة صافية وانعكس وجهه على صفحتها بطريقة افضل • لكن الترعة كانت كجميع الترع ، يختلط طينها بمائها ، ويتعرج سطحها البطيء الحركة بثبات وتجاويد كبشرة الوجه العجوز الموغل في الزمن •

اما عيناه فقد اصبحتا ايضا واسعتين ، عجوزين ، شاخصتين في الظلام ، ثابتتين ، الجفنسان لا يتحركان ، والرموش تجمدت ، ودمعة كبيرة تجمدت فوق السطح •

لاول مرة تتجمد الدمعة فوق السطح ، وكانت من قبل
كدموع الاطفال لاتكف عن الحركة المستمرة الى حد الرعشة
كرعشة النجم المتلألئ ، ويخلط المرء في الطفولة بين
لمعة الدموع ولمعة الابتسام .

لكن احدا لم يكن يخطئ في تلك اللحظة . انه
حميدو الان الواقف بجسده على جسر الترفة . انه ليس
طفلا . وهذه الدمعة الكبيرة ليست دمعة طفل ، وانما
هي دمعة حقيقية ، لها ملمس مادي فوق الوجه ، ولها
طعم الملح في الفم .

ملح حقيقي ، فالدموع ككل سوائل الجسم تحتوي
على الملح ، وحميدو لا يعرف كيف يعيش بغير حميدة ، فهي
ليست اختا عادية ، ولكنها توأمه . والتوائم نوعان .
نوع ينشأ عن الجنين يعيشان في رحم واحدة ، ونوع اخر
ينشأ عن ذكر واثني داخل جنين واحد .

وكان حميدو وحميدة جنينا واحدا ، ينمو داخل
رحم واحدة . منذ البداية كانا شيئا واحدا ، او خلية
واحدة ، ثم اصبح كل شيء ينقسم اثنين ، والملاح
انقسمت اثنين ، ادق الملاح انقسمت اثنين ، حتى العضلة
الضئيلة الصغيرة تحت كل عين انقسمت ، ولم يعد ممكنا

لاحد ان يعرف حميدو من حميدة ، حتى امهما كانت
تخلط بينهما .

لكن حميدو كان يعرف انه شيء آخر غير حميده ،
وان جسده منذ الولادة انفصل عن جسدها ، غير ان الشبه
كان شديدا ، والخلط بينهما شديدا الى حد ان الامر
كان في بعض الاحيان يختلط عليه هو ايضا فيظن
انه حميده ، ويختفي وراء جدار ، ويرفع جلبابه عن فخذه
وينظر بينهما ، وحينما تسقط عيناه على الشق الرفيع
الصغير يدرك انه حميدة ، وتسقط فوقه العصا تمسكها
اليد الكبيرة فيشد الجلباب عليه ، ويكي بدموع
حقيقية ، تختفي بسرعة كدموع الاطفال ، ويرى
العصا ملقاة على الارض ، فيجري اليها ويأخذها ،
ويدسها في جيب جلبابه الطويل ، ومن حين الى حين تمتد
يده الى جيبه يتحسسها ، وتسري صلابتها في اصابعه
وتنتقل الصلابة الى ذراعه وكتفه وعنقه . ويشد عضلات
عنقه فاذا برأسه ينثني الى الوراء في حركة تشبه حركة ابيه ،
ويتكلم من حلقه بصوت غليظ يقلد به صوت ابيه .

وحينما تسمع حميدة صوتـه الغليظ تدرك ان
العصا معه . لم تكن ترى العصا بطبيعة الحال لكنها كانت

تعرف انه يخبئها تحت جلبابه ، في مكان ما تحت الباب •
وتجري لتهرب منه ، فيجري وراءها • ويظن من يراها
انهما يلعبان ، لكن حميدو لم يكن طفلا ، وفي
جيب جلبابه شيء يخبئه ، شيء صلب يتدلى بحذاء
فخذه كالعضو الغريب •

وحيثما ترفع حميدة عينها اليه وتري وجهه
لا تعرف انه حميدو • وتتسمّر في مكانها من شدة
الدهشة او الذعر • لا تتحرك من مكانها • تتجمد كتمثال ،
يضع حميدو كفه فوق سطحه ، ويلمس الجفنين الحجريين
ويضع اصبعه بين الجفن والعين ، كاصبع كل الاطفال حين
يمسكون رأس دمية كبيرة الحجم لها شعر ولها رموش
تكاد ان تكون حقيقية •

ولم يكن حميدو قد امسك في حياته قط برأس دمية
كبيرة او صغيرة • فالاطفال في الريف لا يلعبون بالدمى ،
ولا يلعبون بالعرائس ، ولا يلعبون بالقطارات او مراكب
الورق او الكرة او اي شيء اخر • انهم لا يعرفون اللعب •
فاللعب للاطفال ، وهم ليسوا اطفالا • انهم يولدون كبارا
كيرقات الذباب ما ان تعرف ملمس الارض حتى تطير ، او
كدود المش تنفصل الدودة الجديدة عن الدودة الام فلا
تكاد تفرق بين الدود الجديد والدود القديم •

ورأى حميدو وجه حميدة مقبلا من بعيد على جسر
الترعة • وخفق قلبه بفرحة الاطفال القديمة ، لكنها
اقتربت منه • وعرف طرحة امه السوداء تلف الرأس
وتسدل فوق الكتفين والصدر والبطن • جرى اليها ووضع
رأسه على بطنها • • لم يكن رأسه وهو واقف الى جوار
امه يرتفع لاكثر من خصرها • امتلأ انفه برائحة امه المميزة
تستزج برائحة خبيز الفرن وتراب الحقل والجميز • كان
يحب الجميز ويجري نحو امه حين تعود من الحقل
تلف الجميز في طرحتها ، ثم تجلس على الارض الى جواره ،
وتناوله الجميز واحدة واحدة بعد ان تنفخ عنها
التراب •

دفعته أمه بيدها • لكنه ظل ملتصقا بها ، متشبثا
بجسمها • واستطاع أن يضع رأسه تحت ثديها الايسر •
في هذا المكان بالتحديد كان يجب أن يضع رأسه حين
ينام الى جوارها كل ليلة • كانت تنام بعيدا عنه ، في
الطرف الآخر من الحصيرة ، لكنه كان يصحو في منتصف
الليل ، وحينما لا يراها الى جواره يزحف اليها ، ويدفن
رأسه تحت ثديها •

لم تكن تبعد عنها دائما ، وتمتد ذراعاها وتلتفان

حواله وتضغظ عليه بقوة ، بكل قوتها الى حد انها تؤلمه •
ويسري في جسده احساس غامض بأنها ليست أمه ،
وليست خالته ، وليست عمته ، وليست أية واحدة من
قربياته • وانما هي غريبة عنه ، وجسدها غريب عن جسده ،
غرابة تجعله يقشعر ، والقشعريرة تسري من السطح الى
العمق ، ترجّ جسده كرعدة الحمى •

ولفّ ذراعيه حولها من شدة الرعدة ، لكنه أحس
قبضة يدها الكبيرة القوية كقبضة أيه تدفعه بعيدا وكاد
يسقط في حفن الجسر ، ورفع وجهه اليها ، ورأى عيني
أيه الواسعتين العجوزين يجري فوق يياضهما الكبير
شعيرات دموية حمراء • اشتدت الرعدة وكاد يصرخ من
الفرع ، لولا ان يد أيه الكبيرة أصبحت فوق فمه ،
وصوته الغليظ أصبح كالفحيح :

— تعال ورائي •

الليل مظلم بغير قمر ، والشفق لم يطلع بعد ، وكل
شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما بين
آخر الليل وأول خيوط النهار قبل آذان الفجر ، وقدمتا
أيه الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة

كبيرة ، يوشك أن يجري ، وحميدو خلفه ، يكاد يلمس
ذيل ثوبه •

أراد أن يفتح فمه ويسأل أباه ، لكن أباه توقف عند
سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن قضبان القطار •
وراء هذا السور كان يختفي حميدو حسين يلعبون
« المساقة » • ناوله أبوه شيئاً طويلاً ، صلباً وحاداً ، لمع
في الظلام كالسكين •

دس حميدو السكين في جلبابه فسقط في قاع جيبه
وتدلى بحذاء فخذه • أحس طرفه المديب الحاد فوق لحمه
فتقلصت عضلات فخذه وساقيه وقدميه ، وتسمر في
مكانه • لكن صفارة القطار الحادة جعلت الأرض تهتز
تحتة ، فثبت قدميه في الأرض يقاوم أي حركة كجواد
جامح ، لكن يد أبيه الكبيرة دفعته في ظهره بقبضتها القوية،
وصوته الغليظ المنخفض كالفحيح :

— العار لا يغسله الا الدم • اذهب وراءها !

واندفع حميدو نحو القطار ، لكنه استدار لحظة قبل
أن يركب ، ورأى أباه واقفاً في مكانه ، متسماً في
الأرض، ثابتاً لا يتحرك، والجفنان أيضاً ثابتان، والشعيرات

الدموية فوق البياض تجمدت كخيوط من السدم رسمت
باليد فوق لوحة حقيقية ♦



في تلك اللحظة كانت حميدة تضع قدمها فوق سلم
القطار لتهبط منه ♦ وكأنما سقطت في بحر ، بحر هائج ♦
الامواج ليست ماء ولكنها بشر ♦ رجال ونساء وأطفال
يرتدون الاحذية الجلدية السميقة ، وعربات كالقطارات
تجري صفوفًا صفوفًا فوق شوارع لامعة بغير تراب ،
تتفرع وتتشابك ثم تتفرع بغير نهاية كشجرة رأسها في
السماء وجذرها في بطن الارض ، والبيوت عالية شاهقة
متراسة في كتلة واحدة ضخمة تحجب السماء ، فلا ترى
فيها العين شبرا واحدا ، والضجيج والاصوات والابواق
نصمّ الاذن فلا تعود حميدة تسمع شيئا ♦ لكن قدميها
الحافيتين كانتا تنتقلان وحدهما فوق الاسفلت ، القدم
ومن خلفها القدم الاخرى ، تلك الحركة الطبيعية ، حركة
المشي التي يتعلمها الانسان منذ الصغر ♦ وكان من الممكن
أن تستمر على هذا النحو دون توقف ، فهي لا تعرف
طريقها ، ولا تعرف أين يبدأ والى أين تنتهي ، لكن حذاء
جلديا سميكًا داس على أصابع قدمها اليسرى وكاد يفرمها،

فترنحت لحظة ، فاذا بعربة ضخمة تكاد تدهمها ، وصرخت حميدة • انفتح فمها عن آخره وخرج منه صوتها المكتوم في صرخة حادة طويلة ، طول صرختين أو ثلاث صرخات ، أو عشر ، أو مئة ، أو ألف • صرخة متتابعة ، متعاقبة ، متصلة في صرخة واحدة طويلة •

ابتلع الضجيج الصاخب صرختها كما تبتلع أمواج البحر قطرة ، أو قشة ، أو فراشة ، أو عصفورا وليدا لا يطير • لم يسمع صوتها أحد ، وظلت الدنيا كما كانت تهدر كالشلال ، تفتت مياهه الساحقة أجساد التماسيح وأشلاء السفن ، وتذيبها ، وتظل مياهه هي مياهه ، بيضاء كما كانت •

سارت حميدة تعرج بقدمها الجريحة ، وجلست في ركن بجوار سور بعيد عن العربات والناس • أسندت رأسها الى السور وحملت بعينيها أمامها • كل شيء من حولها يدور في غموض ، يلفّه الضباب ، كالحلم ، أو الكابوس ، الذي ستفيق منه بعد قليل ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفورة • اتكأت بيدها لتقفز ، لكن كفّهما لمس بطنها ، فانتشعت فجأة عن عينيها غمامة ، ولأول مرة يصبح كل شيء أمامها قابلا للفهم ، ليس ذلك الفهم المدرك

لحقائق جديدة ، ولكنه الفهم الغريزي المبهم الذي ينبعث
من خلايا الجسد المرهقة في لحظات الراحة أو الاسترخاء
الشديد .

نامت في مكانها ثم صحت جائعة • لمحت الى جوارها
مخبزا ، رصت أمامه أرغفة الخبز صفوفا صفوفا • مدت
ذراعها النحيلة وأمسكت بأصابعها الصغيرة رغيفا • قربته
بسرعة الى فمها وكادت تقضمه بأسنانها ، لكن يدا كبيرة
لها أصابع طويلة التفتت حول ذراعها •

شهقت •• ارتفع صدرها بالشهقة فظهر ثدياها
الصغيران من تحت الجلباب الواسع كزيتوتتين ، وبرز
بطنها المنتفخ كبالونة الاطفال ، والطرحة السوداء لا تزال
تغطي رأسها وشعرها وتسدل على كتفيها حتى أسفل
ظهرها قبل ردفها الصغيرين بقليل •

رفعت عينيها المذعورتين ورأت أمامها عينيْن واسعتين
تحميلقان فيها • شدت طرحتها وأخفت بها نصف وجهها
كما تفعل نساء قريتها • ظهرت عينيها الوحيدة واسعة
سوداء فيها نظرة مشدوهة لا تزال بها لمعة طفولة ساذجة •
لمعة عين كانت مغمضة ، ففتحت لأول مرة على عالم بغير

حدود ، وصنع الذعر حولها عضلة مشدودة بدت كالدائرة المفتوحة أو كعلامة استفهام مبتورة الذيل ، والدموع الجافة خلعت فوقها طبقة كالسحابة الخفيفة ، يزحف نحوها من زاوية الانف احساس جديد بأنها أنثى وليست ذكرا ، أنوثة لم تكتمل بعد ، ولم يعرفها أحد بنفسها ، ولكنها هي التي اكتشفت نفسها بنفسها منذ لحظات ، فاذا بها فجأة طازجة لا يزال يعلوها الندى •

تملّصت من اليد الكبيرة واستطاعت أن تفلت • وانطلقت تجري • جرى وراءها • دخلت في شارع واختبأت وراء باب من الابواب • أطلت برأسها فلم تجد أحدا • خيل اليها انها نجت ، لكن الذراع الطويلة امتدت من الخلف وأمسكتها من رقبتها ، وصوت خشن غليظ دبّ في أذنها :

— قبضت عليك يا لصة ! أمامي الى القسم !

استسلمت • تركت ذراعها النحيلة البيضاء في قبضته ، قبضة يد غليظة كبيرة ، لها خمسة أصابع ، مفاصلها بارزة وعظامها مقوسة ، والعروق من تحت الجلد نافرة ، وتحت الاظافر السميقة طبقة طينية سوداء •

زحفت عيناها فوق ذراعه الطويلة ورأت كتفيه • كتفان عريضتان ، فوق كل كتف صف أفقي من خمسة أزوار نحاسية ، يفصل بينهما عنق غليظ ، التفتت حوله ياقعة عالية ، اسودت من الداخل بسبب التراب الذائب في العرق ، تدور الياقة حول عنقه باحكام ، ثم تهبط من الامام فوق صدره في صف رأسي من عشرة أزوار نحاسية • كانت حميدة قد تعلمت شيئاً من الحساب في المدرسة الالزامية ، فأخذت تعد الازرار • خمسة فوق كل كتف ، أي عشرة فوق الكتفين ، وعشرة فوق الصدر ، فيكون المجموع عشرين زرا •

النهار كان قد انتصف ، والشمس أصبحت متوهجة ، ينعكس قرصها الاحمر فوق الازرار النحاسية المستديرة ، فنبذو كعشرين قرصاً شمسيا تدمع العين لمجرد النظر اليها ، ولا تقوى على الحملقة فيها فتطرق الى الارض • لكن الارض تلتهب تحت قدميها الحافيتين بسخونة لم تعهدا في الارض من قبل ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة يدب بصوت معدني غريب ، يشبه احتكاك الحديد بالحديد • وخطوته واسعة ، وقدمه حين ترتكز على الاسفلت تصبح ثابتة ، والقدمان ترتفعان الى ساقين

طويلتين داخل بنطلون من قماش سميك له جيب طويل
كالسرداب تختفي فيه آلة صلبة حادة ، وتتدلى بحذاء
فخذه •

دخلا من الشارع الواسع الى شارع ضيق • الاصابع
الطويلة لا تزال تلتفّ حول ذراعها • لكنها ليست خمس
أصابع كما كانت • أصبحت أربع أصابع • أما الاصبع
الخامس فقد انفصل عن بقية الاصابع وصعد وحده الى
أعلى ، فوق الذراع الناعمة ، حذرا متلصصا ، ثم دون
رأسه الاسود الغليظ تحت الابط الاملس الطفولي الذي
لم ينبت فيه الشعر بعد •

شدّت ذراعها • لكن الاصابع الاربعة تقلصت على
لحمها الطري ، والاصبع الخامس امتد من تحت الابط
واصلا ببوزه الاسود المدب حتى الارتفاع الناعمة لبرعم
الثدي ، يضغط عليه ضغطات حذرة مرتعشة متقطعة ،
تزداد شدة في ثنية شارع ، أو خلف جدار ، وتخفّ أو
تعدم تماما في وسط الشارع ، وأحيانا يتراجع الاصبع
الخامس سريعا ويلتصق باخوته الاربعة حين يمران أمام
حشد من الناس •

ملأت أنفها فجأة رائحة تننة • ووجدت نفسها في

زقاق ضيق مظلم • أمام باب خشبي صغير رأته يتوقف •
أخرج من جيبه مفتاحا • دفعها أمامه الى الداخل ثم أغلق
الباب •

لم تر شيئا أول الامر ، فالظلام دامس • أشعل بعود
ثقاب مصباح كاز صغيرا فظهرت على الفور أرض بلاط
ضيقة ، في أحد أركانها بساط يشبه الحصيرة ونسافذة
حديدية صغيرة فوقها قلة ماء • جدران الحجر تبدو في
الضوء الخافت رمادية يعلوها سواد كالهباب الذي يحدث
من موقد الكاز • على أحد الجدران مسمار عليه بدلة من
قماش سميك يشع من فوق صدرها وكتفيها العريضتين
المحشوتين أزرار نحاسية صفراء ، لمعت في الظلام كعيون
مفتوحة مريضة بالتهاب الكبد الفيروسي • على الأرض
استقر الحذاء الضخم برقبته الطويلة كحيوان بغير رأس ،
والى جواره سروال أبيض اصفر " ظهره واسود " بطنه ، تفوح
منه رائحة بول قديم •

رفعت رأسها من فوق البلاط فرأته واقفا عاريا • كنفاه
العريضتان أصبحتا نحيلتين ضامرتين عظامهما بارزة ،
وساقاه أصبحتا رفيعتين معوجتين ، وقدماه الضخمتان
السميكتان المرتفعتان عن الأرض أصبحتا لا يفصلهما عن

البلاط شيء ، والآلة الحادة الصلبة التي كانت مخفية في جيبه أصبحت ظاهرة •

شهقت بدهشة مليئة بالذعر • قاومت الذعر برد فعل غريزي • لكنه طرحها على الارض ، وشد باصبعه الغليظ جلبابها من فتحة العنق فانشطر الثوب البالي شطرين ، ولم يكن هناك ملابس داخلية تحت الجلباب •

قالت بصوت ضعيف مشروخ :
- انت مين ؟

رد بصوت آمر غليظ :
- أنا الحكومة •

قالت :

-- ربنا يطول عمرك سييني أروح •

رد بصوت آمر غليظ :

- تروحي فين يا بت ، انت محكوم عليك •

كل شيء أصبح يتحرك بسرعة فائقة ، بسرعة الانفاس التي تلهث ، وبسرعة العضلات التي تنقبض وتنبسط ، سرعة غير عادية لا تحدث الا في الاحلام ، لكن الحلم لم يختلط هذه المرة ، لم يكن هناك بائع يضرب بالعصا ،

وانما هو ذكر له شارب خشن يحتك بوجهها ، وتسد رائحة التبغ أنفها ، وشعر صدره غزير ، تلاحمت شعراته الطويلة والتصقت فوق الجلد بعرق سميك لزج .

وكل شيء توقف فجأة . لحظة سكون تشبه لحظة الموت . رفعت رأسها من فوق البلاط. وتلفتت حولها . رآته راقدًا على ظهره ، عيناه مغمضتان ولا يتحرك . ظنت انه مات ، لكن شخيرا خافتا بدأ ينبعث من فمه المفتوح ، ما لبث أن ارتفع وأصبح كخزير ساقية عتيقة يجرها ثور منهك مريض . رفعت جسمها بهدوء من فوق الارض ، وشدت طرفي جلبابها المشطور فوق صدرها وبطنها . سارت على اطراف اصابعها الى الباب . حركت رأسها بهدوء ونظرت خلفها . رأت العيون العشريين الصفراء مفتوحة تحملق فيها . فتحت الباب بسرعة . رأت الشارع الواسع أمامها ، فانطلقت فيه بكل قوتها تجري هاربة بغير توقف .

* *

في تلك اللحظة ، كان حميدو قد هبط من القطار ، وأصبح ظهره ناحية الجنوب ووجهه ناحية الشمال ، وعيناه أمامه تنظران ، تحملقان في الوجوه المحتشدة خارج محطة

باب الحديد ، المحطة الرئيسية القديمة لمدينة القاهرة ،
وقدماه الحافيتان تنتقلان فوق الارض الاسفلت ، وجلبابه
طويل واسع ، تهتز من تحته السكين ، وتتدلى بحذاء فخذ
كطرف صناعي أو عضو مزروع .

ارتطم بوز السكين الحاد المدب بلحم فخذ فاقشعر
جسده ، وسرت القشعريرة في عنقه ورأسه . ترنح ، وكاد
يسقط بين الاحذية الجلدية السميقة ، لكنه شد عضلات
ساقه وظل منتصبا فوق قدميه الحافيتين ، وعيناه تائهتان
في الخضم الواسع المتلاطم ، ترتفعان مع قمم العمارات
الشاهقة ، وتهبطان مع شعاع الشمس المنعكس على
الاسفلت اللامع ، وتدوران مع حركة الميدان المستدير ،
وفي مركز الدائرة تمثال حجري ضخيم له رأس انسان ،
تلفّ حوله صفوف من البشر ، والاعلام ، و صفوف من
العربات ، تلفّ وتلدور ثم تتفرع منتشرة في خطوط
مستقيمة متعددة ، لا تلبث أن تتشابك وتصبّ في ميدان
آخر ، ثم تتفرع ، وتنقسم الفروع الى فروع ، تتفرع ،
وتتشابك ، وتتفرع بغير نهاية .

أخفى عينيه يديه ، وأسند رأسه الى عمود نور .
غلبه النوم فنام وهو واقف على قدميه . فتح عينيه على
صوت . تلفّت حوله . رأى الشارع الواسع هادئا خاليا

من الناس والعربات ، غارقا في ظلمة الليل • ثقب الظلمة بعينه الحادتين • لمح شبحا يجري من بعيد ، قدماه حافيتان ، والجلباب الواسع الطويل يرتفع فوق البطن ارتفاعة مرئية واضحة •

انفجرت شفتاه وتدافعت أنفاسه لاهثا : حميدة • وانطلقت قدماه فوق الاسفلت ، يده اليسرى مرفوعة أمامه تشق الظلمة ، ويده اليمنى في جيبه تتحسس النصل الحاد الصلب • توقف الشبح في ركن مظلم • اقترب منه حميدو بخطوات بطيئة حذرة • أصبحت المسافة بينهما خطوة واحدة • سمع الصوت الخشن يهمس كالفحيح : « العار لا يغسله الا الدم » • انتزع السلاح من جيبه وأخفاه خلف ظهره • كشف الركن المظلم فجأة ضوء كشاف متحرك • رأى وجه أمه من تحت الطرحة السوداء • صرخ • دوت صرخته في الليل فتوقف الضوء فوق وجهه • اقترب منه شخص لم ير عينيه في الظلام ، لكن على كتفيه وفوق صدره رأى صفيين من العيون المحملقة المستديرة تشع ضوءا أصفر •

انفجرت شفتاه ليسأل ، لكن كفا كبيرة غليظة سقطت فوق صدغه ، تبعثها كف أخرى فوق الصدغ الآخر • رفع

ذراعه ليقاوم الصنعات لكن خمسة أصابع التفتت حول
ذراعه • استعان بذراعه الثانية فارتفعت في الجو ذراع
خشبية كالشومة سقطت فوق رأسه •

حينما فتح حميدو عينيه شعر بصداع شديد •
تحسس رأسه وعثر بين الشعر على الجرح تغطيه قشرة من
الدم الجاف • هرشها فسقطت على الأرض الى جوار حذاء
ضخم يرتفع الى رقبة جلدية تحوطها ثنية بنظون من قماش
سميك ، والساقان طويلتان ترتفعان الى صدر مربع عريض
رشق عليه من الامام وفوق الكتفين صفان من الازرار
الصفراء المستديرة ينعكس عليها ضوء مصباح خافت •

داس الحذاء الضخم على قشرة الدم وهرسها
بوحشية ، ثم دب فوق الأرض فارتفع في الجو صوت
غليظ خشن :

— ما اسمك ؟

— حميدو •

مشت الموسيقى الحادة فوق جلدة رأسه فأصبحت
صلعاء ، وسقط شعر رأسه الغزير في جردل مع جلبابه
الطويل الواسع • كانت الشمس مائلة في أول الصباح

المبكر ، فرأى ظل شخص طويل عريض الكتفين يتبعه فوق الأرض • توقف الظل • تحرك فتحرك • ضرب الأرض بقدمه فسمع صوتا معدنيا غريبا لم يعهده من قبل حين كان يضرب الأرض بقدمه الحافية • نظر الى قدميه • رأى الحذاء السميك الضخم يرتفع في الرقبة الجلدية الطويلة والبنطلون من القماش السميك وداخل كل منهما ساقه الحقيقية النحيلة، والساقان ترتفعان الى صدر عريض مربع مغلق بصف من الازرار النحاسية ، والكتفان عريضان محشوتان بالقطن أو القش •

داس بحذائه على الأرض في خطوات بطيئة وجملة • داخل كل فردة حذاء ترقد قدمه النحيلة الصغيرة منكشمة، منضغطة تحت الجلد السميك ، أصابعها رفيعة بيضاء ، لا يجري فيها دم ، ولا تسري فيها حركة ، ميتة أو شبه ميتة ، وحركتها داخل الحذاء معدومة • الحذاء هو الذي يحركها ، يرفعها ويخفضها ، وينقلها فوق الأرض خطوة خطوة • وفي كل خطوة يصطك حديد الكعب بالاسفلت محدثا صوتا معدنيا وبطيئا كاصطكاك حافر عجل مريض مساق الى المذبح •

توقف ، فتوقف الظل الاسود المرسوم بعناية فوق

الارض ، رأسه حليق أملس انعكست عليه الشمس ،
والعينان ثقبان في الرأس ينفذ منهما الضوء ، والعنق
عضلاته مشدودة ، وعضلات الظهر مشدودة ، وجدار
البطن مشدود من تحته معدة مشدودة ضامرة لم يدخلها الا
دخان أسود ، ولعاب أسود ، وكسرة خبز مقددة غمست
في عسل أسود ، مع قطعة من بصل، أو قطعة مخلل تلسع
كالعقم ، يصلح بالعقم طعم العسل الاسود ، ثم يصلح
طعم العقم بالدخان الاسود ، يشفطه بأنفه وفمه وبلعومه
ليملأ به صدره ، ويضغط به على معدته فيتجشأ كالذي
شبع .

لسعه كرباج رفيع خلف عنقه فتحركت قدماه فوق
الارض . القدم اليمنى أولاً ثم القدم اليسرى . اصطك
الحديد بالاسفلت في دقات منتظمة ، كدقات الساعة ،
أو ضربات القلب : كب . دب . كب . دب . شمال .
يمين . شمال . يمين .

دوى الصوت القوي الخشن في الجو :

— قف ا

اصطكت فردتا الحذاء بعضهما البعض ، والتصقت
ساقاه وفخذه بعضلات منقبضة . امتدت يده اليمنى في

جيه واستقرت فوق آلة القتل الصلبة ، تمتد صلابتها
بحذاء فخذه وتنتهي برأس معدني مدبب ومثقوب •

صاح الصوت الخشن :
- انتباه !

التفت أصابع يده اليمنى حول الآلة ، أربعة أصابع
فقط وانفصل الابهام ليصبح وحده فوق الزناد ،
واحدي عينيه صوبت الى النقطة المحددة الثابتة في منتصف
المسافة بين العينين المفتوحتين •

فتح فمه ولهث • لكن يدا قوية ضربته على بطنه
والصوت الخشن دبّ في أذنيه :
- اغلق فمك واكتم نفسك •
أغلق فمه وكنتم نفسه •

صاح الصوت الخشن الأمر :
- العار لا يغسله الا الدم !
وضغط بابهامه على الزناد •

سمع دويا لم يسمعه من قبل ، ورأى جسدا يسقط
على الارض يجري من تحته سائل أحمر عرفه على الفور •
انه دم الشاة • فاليوم هو العيد ، وهو لا يزال واقفا

يحملق في العينين المفتوحتين ، الساكنتين ، لا يرمش لهما
جفن ، ثابتتين بنظرة ميتة ، اتسعت وامتلات بالذعر ،
وانتقل الذعر اليه فارتجفت ساقيه النحيلتان تحت الجلباب
الواسع ، وجرى ليدفن رأسه في صدر أمه ويبكي •

ومسح دموعه في صدر أمه ثم رفع عينيه اليها ،
ورأى عيني أبيه تكسوهما الشعيرات الدموية • والازرار
النحاسية الصفراء فوق الصدر والكتفين كانت لها لمعة
خاصة ، والصوت الاجش كانت له خشونة أمره مخيفة :
أتبكي كالنسوان ؟

وعاد حميدو الى مكانه من الصف • وقف منتصبا ،
تحت قرص الشمس ، عيناه بلون ضوء الشمس ،
حمر اوان ، سوادهما هرب تحت الجفن في الظل ، في المكان
الامين الرطب • الجو في الخارج شديد الحرارة •
الاسفلت ملتهب ، أذابته السخونة الشديدة فأصبحت
كعوب الاحذية تنغرز فيه كما تنغرز في الارض الطينية •

توقف حميدو لحظة ليشد حذاءه • تخلف خطوة عن
الصف • لسعه الكرياج على قفاه • قفز ليلحق بالصف
لكنه انكفاً على وجهه وسقط على الارض •

قبل لحظة السقوط كان حذاؤه قد انخلع ، وكان
الهواء الساخن قد اندفع في صدره على شكل كلمة
منطوقة لها صوت أدرك انه صوته حين ينطق • وأدرك ان
جسده هو الذي سقط على الارض وليس جسدا آخر ،
وان الدقات المنتظمة المسموعة في أذنه تنبعث من صدره •
وشعر بزهو لقدرته على تمييز جسده عن جسد الشاة •

ظهر الزهو في عينيه ، وكان وجهه لا يزال ناحية
الارض ، فطارت البصقة من الفم الغليظ واستقرت فوق
مؤخرة رأسه ، تبعثها سببة مألوفة للاذن (اسم من أسماء
الاعضاء التناسلية المؤنثة) ، تبعثها لكمة قوية بيوز حذاء
سميك في ظهره فوق الكلية مباشرة •

هذه اللكمة بيوز الحذاء لم تكن تحدث كل مرة
بهذه القوة نفسها • وكنت أرى حميدو ينهض بعدها
ويجري ويدخل الصف • لكن اليوم كان العيد • وسيد
سيحضر الحفل بشخصه لا بسندوب ، ومن الطبيعي ان أي
خطأ لا يغتفر ، وان كان زلة قدم • لم تكن زلة القدم في
ذلك اليوم مجرد زلة قدم ، ولكنها تصبح شيئا آخر
أشد خطورة • لان الصف يصبح مشوها • وحين يشوه

صف تشوه الصنفوف الاخرى بطبيعة الحال . وهذه كارثة .

واختلطت الاشياء أمام عيني حميدو . لم يكن ذلك لقصور في قدرته على الملاحظة ، بسبب ضيق الوقت أيضا . فالوقت في مثل هذا اليوم الهام يصبح ضيقا، ووقع الحياة يصبح سريعا لاهثا ، فلا يمكن لانسان أن يتنفس التنفس الطبيعي ولا بد أن يلهث الجميع .

ولهث حميدو كغيره من البشر فلمخته عين . دائما هناك عين تلمح ، ترقب الاشياء ، وتدس أنفها بتطفل شهواني في حياة الغير أو موتهم . لا تترك الحي يستمتع بحياته ، ولا الميت يستمتع بموته . وضم حميدو ساقه باستحياء (كان قد اكتسب قدرا من الحياء) ، وأفسح الطريق لموكب العربات . لكن الوقت كان ضيقا الى حد ان ساقه اليسرى لم تجد متسعاً من الوقت لتتحرك وظلت ممدودة في الطريق ، حافية ، وأصابع القدم الخمسة منتصبه ، تهتز بحركة مرئية بالعين المجردة .

توقف الموكب مشدوها أمام المشهد الذي لم يحدث من قبل ولا من بعد . لم تذكر كتب التاريخ حادثة من هذا

القبيل • لكن ما يكتب في التاريخ شيء والذي يحدث في الواقع شيء آخر • وما حدث في الواقع كان يستحق أن يدخل التاريخ لجسامته ، لكن التاريخ بطبيعته لا يفتح بابه للحوادث الجسيمة ، خاصة اذا كان بطلها حميدو •

لم يشعر حميدو ببطولته رغم الزحام الذي أصبح حوله • أعداد هائلة من البشر تجمعت في لحظة خاطفة • وامتلات المساحات الخالية بين العمارات بالاجساد ، وانسدت الابواب والنوافذ بالرؤوس ، وترك الناس مكاتبهم ودواوينهم وأغلقوا حوانيتهم واصطفوا صفوفًا متلاصقة يستمتعون بالمشهد • لا أظن ان أحدا تخلف ، صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، من الطبقة العليا أو من الطبقة الدنيا ، فالكل يريد أن يستمتع ، واللذة عامة ، ومشروعة بشرط أن تكون في الخفاء •

وكان حميدو لا يزال في موقعه من الارض ، وعيناه مغمضتان بطبيعة الحال بسبب الموت ، لكنه رأى (ورؤية الميت أشد حدة من رؤية الحي) رجالا كثيرين من حوله • عرف انهم رجال بسبب رؤوسهم الحليقة ، وخرابيمهم المطاطة ، وأزرارهم النحاسية، وآلات القتل الصلبة المتدلية بجذء أفخاذهم •

حاول أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه ، ليحكي قصته منذ ولدته أمه ، لكن سيده كان حاضرا ، وفي حضور سيده يصبح الوقت ضيقا ، ولا يكون هناك متسع لاحد ، والحكم بطبيعة الحال لا بد أن يصدر أولا ، ويوقع عليه بالعلم ، وينفذ ، ثم يتسع الوقت بعد ذلك لاي شيء آخر .

وصدر الحكم ضد حميدو فوق صفحة كاملة من صفحات دفتر الاحكام ، وكان القانسون يقضي بأن يقرأ حميدو المحضر قبل أن يوقع عليه بالعلم . ولم تكن الحروف واضحة بسبب رداءة الخط والسرعة في كتابة المحضر ، وأصبح من الصعب على حميدو أن يفك الخط ولم يكن حميدو قد تعلم القراءة .

لكنه استطاع أن يلتقط كلمة أو كلمتين من كل سطر . ودهش لقدرة رجال البوليس على تحويله من جندي مجهول الى بطل ، وأن تكون بطولته خارقة للعادة الى حد ان حركة أصابع قدمه الحافية في وجه سيده أصبحت حركة نمرد . ولم يعد حميدو قادرا على كتمان زهوه ، وراح يحرك أصابع قدمه حركة بطيئة مليئة بالكبرياء .

وارتفعت جميع الاكف بالتصفيق . وكان سيده في

الصف الاول • فارتفع كفتاه أيضا بالتصفيق (حركة سيده كحركة التاريخ لا يمكن أن تتجاهل الجماهير) •
وحيثما تحركت ذراعاها الى أعلى وهو يصفق ، سقط فوق الارض الساندويتش المحشو بلحم الشاة الذي كان يخفيه تحت ابطه ، التقطه على الفور طفل كسيح كان يزحف بين الصفوف بأكياس اللب •

وابتسم حميدو رغم انه لم يدرك شيئا مما يدور حوله ، فالمشهد لا ارادي ولا فضل له فيه ، وغير متقن أيضا ، يفتقر الى الخبرة ، وتنقصه الثقافة الضرورية ، والاطلاع على التراث • ولم يكن حميدو قد قرأ كتب التراث ، وعلى الاخص قصص الحب العذري ، حين كان الحب نظيفا والانسان شريفا ، لم تخلق له بعد أعضاؤه التناسلية •

لكن آدم اقترب الخطيئة العظمى (كما كانت تحكي له أمه) فاذا بعضو قبيح المنظر ينمو بين فخذيته • انتقام الهي عادل على حد قول أمه • وهنا خطر له سؤال لم يخطر له من قبل (ولعل سبب ذلك ان جسده كان ميتا فأعطى نفسه حق التفكير في المقدسات) ، وكان السؤال هو : كيف اقترب آدم الخطيئة قبل أن يخلق له هذا العضو ؟

وأراد أن يطرد عنه هذه الفكرة ، فالتفكير في مثل هذه الامور عمل غير أخلاقي ، خاصة في حضور سيده .
واختلس حميدو نظرة سريعة بين فخذيه فلم يجد العضو ،
ووجد مكانه شقًا صغيرا يشبه الشق الذي كان يراه في جسم حميدة . واعتقد ان في الامر خطأ ما ، وان أجساد الموتى اختلطت بعضها ببعض ، وعند الفرز النهائي أعطوه جسد امرأة . دائما هناك خطأ في الفرز النهائي . فالموظف الذي يفرز ضعيف البصر بسبب الدرن الرئوي . وهو الوحيد المكلف بالفرز . (الميزانية لا تسمح بموظف آخر)
وعليه أن ينقل الاسماء من كشوف الفرز الابتدائي الى كشوف الفرز النهائي . وحروف بعض الاسماء متشابهة ،
وأسماء الاناث لا يفرقها عن أسماء الذكور الا التاء المربوطة ، أمين يصبح أمينة ، وزهير يصبح زهيرة ، ومفيد يصبح مفيدة ، وحميدو يصبح حميدة . أي انها ليست الا جرة قلم ويصبح الرجل امرأة .

وكان حميدو يحب أن يكون امرأة أحيانا ، وفي أحيان أخرى يقاوم ذلك مقاومة شديدة . فالمرأة في ذلك الوقت كانت تكلف بأعمال الخدم المهينة ، كأن تمسح حذاء الرجل بعد أن يخرج من دورة المياه أو تناوله كوب ماء

وهو راقد فوق ظهره يتجشأ بصوت عال (كان مسموحا للرجل فقط أن يتجشأ بصوت عال) ، أو تغسل جوربه النتن ، أو سرواله الاكثر تئانة بسبب البول وعدم توافر الماء والصابون •

ويحاول حميدو تصحيح الامر ، لكن التصحيح لم يكن سهلا بأي حال من الاحوال • اذ عليه دائما أن يثبت انه ليس امرأة ، وفي كل مرة يستدعون الطبيب الشرعي ، الذي ينزع سرواله القذر بتأفف ، وينظر بين فخذيه بكل وقاحة • وأحيانا لا يستوثق تماما من مجرد النظر ، فيمد أصابعه الانيقة ذات الاظافر المشذبة ويفحص العضو المنكمش ، المذعور، ويقيسه من جميع الزوايا بمسطرة مدرجة من البلاستيك ، ويسجل الارقام بقلمه الباركر في دفتر خاص ، ثم يرسلها داخل مظروف مغلق بالشمع الاحمر الى قسم الفيش والتشبيه •

وهذا هو القسم الذي يختلط فيه الحابل بالنابل ، وتختلط فيه بصمات أصابع اليد مع أصابع القدم مع غيرها من أعضاء الجسم • وتتشابك ذيول الارقام مع رؤوسها ، ويسقط منها أجزاء ، وتنطمس أجزاء • والسبب في ذلك رداءة الحبر المغشوش (الغش كان منتشرا في ذلك الوقت

ويمكن لجردل ماء أن يضاف الى زجاجة حبر) •

وظلت حقيقة أمره بهذا الشكل معلقة لبضع سنوات ،
لا يقطع أحد فيها برأي ، ولا يستدعيه أحد لاعادة الكشف •
وظن حميدو ان الموضوع أصبح منسيا أو كأنه ما كان •
وسار في الشارع باطمئنان ، الى حد انه دخل محلا للحلاقة
ليحلق لحيته الطويلة • وجلس على الكرسي المريح المتحرك ،
وهز قدميه باسترخاء ، وشد احدى الجرائد القديمة من
فوق المنضدة ، وقلب صفحاتها بغير اهتمام • لكنه ما أن
وصل الى الصفحة الاخيرة حتى اتسعت عيناه بالدهشة •
كانت صورته منشورة في ذيل الصفحة ضمن صور
المشبهات ، ولم يكن البغاء محرما في ذلك الوقت ،
فأمسكوه وأعادوه الى الخدمة •



كانت حميدة في ذلك الوقت قد اهدت الى مهنة
شريفية (الشرف في ذلك الوقت كان معناه الخدمة
باليوت) • تلقنت أول درس في الخدمة ، وهو أن تنادي
الاناث بكلمة « ستي » وتنادي الذكور « سيدي » •
وأدركت ان رضا أسيادها عليها يزيد كلما زادت اطراقة
رأسها وهي تمر أمامهم ، وأصبحت تثني نصفها الاعلى

فوق النصف الاسفل بصفة دائمة ، فالبيت يحميها من الشارع ، والشارع فيه رجل يتربص بها ولا يكفّ عن مطاردتها •

المطبخ كان حياتها ، وبالذات البقعة المربعة الرطبة أمام الحوض ، ويدها الصغيرتان في الماء الجاري من الصنبور ، ليل نهار ، وصيف شتاء ، وعيناها السوداءوان تواجهان الحائط من تحت طبقة الدموع الجافة ، تذيبها من حين الى حين نظرة ملتبهة حادة كالسيف ، تشق الحائط ، وتنفذ الى حجرة الطعام ، حيث مائدة الاكل المستديرة تحوطها تسعة أفواه ، تنفتح وتنغلق على شديقين منتفخين ، يتحرك الفك الاعلى فوق الفك الاسفل ، والاسنان كتروس الطاحونة تصطك وتهرس ، ويتراكم في الحوض صفوف الصحون الفارغة ، تعلوها طبقة دهنية متجمدة ، وتمتلئ صفيحة القمامة حتى الحافة ببقايا الاكل غير المهضوم ، وتنسد ماسورة المراض ببقايا الاكل المهضوم •

وفي منتصف الليل ، وبعد أن تمسح أرض المطبخ ، تدسّ في فسها قطعة خبز ، وتشد بأسنانها على قطعة جلد أو قطعة عظم داخلها ببقايا نخاع ، ثم تضع جسمها الصغير

بجلبائها المبلل فوق الدكة الخشبية وراء باب المطبخ ، وتترك
أصابعها المتورمة المحترقة تنزّ سائلا أصفر بمثل حرارة
الدم ، وأذنيها الصغيرتين تتابعان الفحيح الذكري العدواني
المنبعث من حجرة النوم يتبعه الاين الاثوي الذليل
وقعقات مفاصل السرير حين يرتج .

أغمضت عينيها ونامت . تخفف جسدها من العبء ،
وزال الالم من يديها وقدميها ، وأصبحت تتنفس بهدوء ،
هدوء مألوف ، تسربت من خلاله صور مألوفة ، راقدة
في قاع الجمجمة ، قاع مظلم ، تتراقص فيه ذؤابة متهالكة
من الضوء ، وتبدو الجدران طينية سوداء يلعب فوقها
قش التبن الاصفر ، ترتفع الى فتحة مستديرة كالنافذة ،
وتهبط الى بساط كالحصيرة ، ترقد على الطرف البعيد
أمها ، طرحتها السوداء حول رأسها ، ويدها كالوسادة
تحت صدغها ، وفي الطرف الآخر تنام حميدة ، عيناها
نصف مغلقتين كعيون الاطفال حين ينامون على قصة
عفاريت مخيفة ، وشفتها نصف منفرجتين عن أسنان
صغيرة شفافة نبتت حديثا مكان الاسنان اللبنية، وأنفاسها
ليها رائحة الاطفال حين يتنفسون كتتنفس الزهر المغمض قبل
طلوع الفجر وسقوط الندى ، ونهداها مديان تحت

الجلباب الواسع كبرعمين نبتا منذ لحظات ثم انضغطا فجأة تحت اليد الكبيرة المفلطحة كالبلطة ، التي أصبحت تزحف متسللة تحت الجلباب ، ترفعه عن الساقين الصغيرتين والفخذين ، والاشياء تختلط في شيء واحد ، في عصا واحدة غليظة في يد البائع ، يضرب ، ويضرب على رأسها ، وصدرها ، وبين فخذها ، وهي تصرخ ، لكن صوتها لا يخرج ، وتبكي وحدها بالليل بنشيج مكتوم ، وتبتلع دموعها كلها قبل الفجر ، وفي الصباح الباكر تبصقها كلها في دورة المياه ، قبل أن يصحو أحد ، وتشد قامتها ، وتنظر في المرأة الى عينيها المغسولتين المرفوعتين في تساؤل •

تساؤل لا أحد يجيب عليه ، رغم ظهرها المحني بعض الشيء ، وأصابعها المتورمة المتقيحة ، وكعبيها المشقيين ، وقدميها الحافيتين تصعدان سلم الخدم ، وسلم الخدم حلزوني وملتو متعرج ، وعند كل ثنية شق مظلم يتسع لجريمة سرية ، وظيفحة قمامة فاضت بها القمامة وملأت الارض بذباب وصراصير صغيرة تزحف من تحت عقب الباب الى الشقق الانيقة الفاخرة •

من يرى حميدة وهي صاعدة السلم أو هابطة لا يرى عليها سمات الخدم • ما هي سمات الخدم ؟ عيناها

مغسولتان مرفوعتان الى أعلى • بعد العينين لا شيء يهم •
وكل شيء يسكن ان يكون متقرا مغلقا على الصديد، وقدمها
تفوصان حتى الركبتين في القمامة ، قمامة عضوية لان
أصحابها من أكلة اللحوم ، ورائحة اللحم الميت أشد فسادا
من النبات الميت ، ومع ذلك تدوس حميدة بقدميها على
الرائحة وترفع عينيها للسماء ، وتدرك ما لا يدركه أحد •

ذلك ان قمامة الانسان تزداد بازدياد مكاتته في
المجتمع • فالمعدة التي تأكل بفتحها العلوية اكثر من غيرها تخرج
من فتحها السفلية بطبيعة الحال اكثر من غيرها • ومعدة
سيدها بغير جدال اكبر معدة ، وقمامته بالطبيعة أضخم
قمامة ، يضعها الخدم في صفايح ، تحملها عربات مصفحة ،
وتجمع على شكل هرم عال في مكان بعيد في الصحراء ،
يتفرج عليه السياح بانبهار •

اهرامات صغيرة من القمامة في ركن كل شارع ، ينفذ
اليها من حين الى حين جردان، وكلاب ضالة، وقطط صغيرة
عيونها مستديرة لامعة مرفوعة الى أعلى كعيون الاطفال
وأصابعها متقيحة كأصابع حميدة ، تفتش بسرعة عن قطعة
خبز ، وشيء من غموس لم يتعفن بعد •

وخرجت اصابعها من صفيحة القمامة تلتف حول شيء، فتحت يدها لتراه ، لكن ضوءا مفاجئا سقط فوق كفها • اختفت بسرعة وراء الجدار • لكن الضوء تبعها ، وظلّ طويل ارتسم فوق الارض ، رأسه حليق اصلع، وكتفاه عريضتان، فوق كل كتف صفّ افقي من خمسة ازرار صفراء تلمع • عرفته على الفور فشهقت بصوت عال ، وفتحت عينيها على صوت سيدها الخشن : حميدة • ورأت الشاة تدخل من الباب يسوقها الجزار • ادركت ان اليوم عيد لذكرى وفاة سيدتها •

التقت عيناها بعيني الشاة • توقفت الشاة • تسمّرت قوائمها الاربع في الارض • ظلت عينا حميدة تحمقان في الدائرتين السوداوين ومن حولهما البياض الصافي ، تكسوه لمعة مفاجئة، تتحرك فوق سطح العينين ، تترقق ، كدمعة كبيرة ثابتة لا تبخر ولا تسقط • اتسعت عيناها بالدهشة • تلك الدهشة التي تحدث لانسان يرفع رأسه فجأة فيرى عينيه في مرآة لم تكن موجودة •

شدّ الجزار الشاة من حبل قصير يلتف حول عنقها • تبعته الشاة • لكن عنقها ظلّ ملويا الى الخلف ،

ناحية حميدة • التفت اصابع الجزار الكبيرة الغليظة حول
العنق ، رفسته الشاة بيديها وقدميها الصغيرتين •
امتدّت نحوها اربع ايد قوية، شدت ذراعيها وساقيها
بعيدا ، واصبحت الشاة ممدودة فوق ظهرها ، وعيناها
السوداوان الواسعتان مفتوحتان بالذعر ، تبحثان في العيون
حولها عن عيني امها • كانت امها تقف على مسافة غير
بعيدة ، عيناها هادئتان ، ثابتتان ، ورموشها ثابتة ،
والطرحة السوداء فوق رأسها وكتفيها وصدرها
ثابتة لا تتحرك •

ارتعشت عضلة طويلة نحيلة تمتد بامتداد الفخذ
النحيل الصغير • امتدت الرعشة حتى اعلى الفخذ ،
حتى الزاوية المنفرجة ، كقم طفل مفتوح يلهث • شفتاه
ناعمتان ورديتان يشف من تحتهما لون الدم الاحمر ،
نديتان بلعاب شفّاف كدموع الاطفال ، واللسان الدقيق
بدأ يرتعش ، كرعشة لسان عصفور يذبح •

رفعت عينيها السوداوين المدعورتين مرة اخرى
تبحثان في العيون المتزاحمة حولها عن عيني امها •
نظرت اليها بعينين غريبتين فيهما نظرة باردة كنصل

السكين • حولت عينيها الى السقف بعيدا عن النصل،
لكن السكين كان يقترب منها رويدا رويدا، وبحركة
سريعة خاطفة كالبرق شطرها نصفين •

لم تشعر حميدة بالالام • عيناها ظللتا جافتين لم
تسقط منهما دمعة واحدة • وتركت جسدها راقدا على
الارض التراب ، ومن تحت فخذيهما شريط طويل من
الدم ، احمر قاتم ، يلمع في الشمس ، زحف اليه النمل
وتكاثف فوق ظهره المتجمد المقوس كظهر ثعبان ميت •
نفخت النمل فدخل التراب في انفها • عطست فاندفع من
فمها قطعة دموع متجمدة في حلقها • مدت يدها الى
التراب وردمت النمل • اندفن الدم واصبحت بقعة
الارض مرتفعة بعض الشيء كالقبر • داست بطن قدمها
على الجزء البارز من المدفن • لم تعد الارض مستوية كما
كانت • داست فوقها بقدميها الاثنتين، وبكل قوتها المستعادة
مشت فوقها • وعند ثنية الجدار اطلت برأسها ونظرت
خلفها • وحينما لم تجد احدا رفعت جلبابها عن
ساقيهما ونظرت • لم يكن هناك العضو المؤلف وانما
شق صغير كالجرح القديم المسدود •

وصل اذنيها الصوت الخشن المؤلف : « حميدة »،

فأسدلت بسرعة ثوبها فوق ساقها • ورفعت الجردل المملوء بالماء وسكبته فوق الشاة ، غسلت عنقها من الدم المتجمد ، وادخلت خراطيم الماء في بلعومها المقطوع فاندفع الماء من فمها وانفها كالنافورة • ضحك الاطفال السبعة في سعادة ، فالיום هو العيد ، والشاة قدذبحت ، والاوناي والصحون فوق المائدة أعدت •

وحلّ موعد الغداء ، وجلس الجميع يأكلون فيما عدا الام ، التي كانت قد ماتت في حجرة النوم ، وحميدة التي كانت لا تزال بجوار الجردل ، تسكب الماء على الجسد الميت ، وتملأ كفها الصغيرة بالشامبوه ، وتدللك الشعر الغزير ، وتدخل اصبعها الصغير في الاذن الكبيرة وتغسلها ، والعين المغمضة ترفع عنها الجفن المسدل وفتحة الانف ، والفم ، والعنق ، والشعر الاسود تحت الابطين ، واسفل البطن •

غسلت الفخذين بعناية ، من تحت ومن فوق ، ومن الوسط • اتسعت عيناها بالدهشة • كان الوسط املس بغير عضو ، مسدودا يعلوه شق طويل كالجرح القديم •

هبطت اصابعها المرتجفة الى الساقين ، ودست

الليفة بين الاصابع المتصقة وغسلت الحوافر • كانت
بقايا طين لا تزال عالقة بالحوافر • طين اسود
تتخلله خطوط صفراء كقش التبن الذي يفرش به الزرائب •

سمعت من خارج الباب الصوت الخشن الأمر :

— لا تضيعي الوقت في الحوافر ، سنعطيتها صدقة
للجزار •

شدت من فوق رف الكتب جريدة الصباح ولفت بها
الحوافر • فوق الصفحة الاولى لمحت صورة مليئة بالوجوه
المستديرة ، المكتظة باللحم • تعرفت في الوسط عن وجه
سيدها • كانوا يجلسون على شكل دائرة • الصحون امامهم
ممتلئة مرتفعة كأهرامات مديبة، وسكاكين لامعة ، تتهاوى
في انتظام فوق الاهرامات • وتناقصت الاهرامات
بسرعة كبيرة حتى اختفت ولم يبق في الصحون الا
فتات •

ظنت ان الاهرامات تلاشت • لكنها دقت النظر في
الجريدة فوجدت الاهرامات كما كانت مرتفعة وعالية
ومديبة ، ولكنها اصبحت في مكان آخر من الصورة ،
في موقع ~~المائدة~~ المائدة والمقاعد ترتفع من اسفل فوق

الفخذين وتعلو حتى المثلث المنفرج في نهاية الضلوع ،
تحت القلب مباشرة •

وانزلت اصابع حميدة فوق القلب الاملس • ارتجفت
يدها وهي تقطع الشريان العلوي وتشطر القلب بالسكين
لتغسله من الداخل • كثيرا ما فعلت ذلك بقلوب الدجاج
والارانب والاوز - ولكن قلب الشاة كبير الحجم ، لا
يزال ساخنا، وعضلاته لا تزال تنبض بدبذبة مرتعشة خفية،
تسري في اصابعها الصغيرة ، وتنتقل الرعشة الى ذراعها
وصدرها وقلبها الذي اصبح يدق بسرعة اكثر •

سقطت من جوف القلب المشطور جلطة دم حمراء ،
انزلت فوق رخام الحوض، وسقطت فوق قدمها الصغيرة •
اثنت ومدت يدها لترفع الجلطة عن قدمها ، لكن
عينيها ارتطمتا ببطن ساقها الطويلة النحيلة ، يجري
فوقها شريط طويل رفيع احمر • ظنت انه شريان تحت
الجلد لكنه كان يتحرك هابطا فوق البشرة • لمستته
بطرف اصبعها ، ثم قربته من عينيها • كان الاصبع
مبلا بدم حقيقي •

رفعت جذعها الى فوق • فالتقت عيناها المدعورتان

بعيني امها • عينان خاليتان من الفزع ، باردتان كبركة ماء
آسنة ، صامتان كالقبر ، ثابتان كعيني انسان ميت •
اسدلت الجفنين فوق العينين الميتتين واسدلت الغطاء فوق
الرأس والجسد • سمعت صوت امها الخافت من بعيد
كأنما يأتي من تحت الارض : « بلغت يا حميدة » •
وناولتها سروالا من الدمور الاسمر ، لبسته حميدة تحت
الجلباب مرة ولآخر مرة ، فلم يحدث ان خلغته يديها ،
وانما هما يدان اخريان ، اصابعهما غليظة مفلطحة ،
ورائحتهما غريبة يفوح منها التبغ • التبغ تعرف رائحته
حميدة • كانت تشتريه من الدكان لاييها او اخيها او
خالها او عمها او اي رجل آخر من الاسرة • وحينما
تقربه من انفها تعطس وتسعل •

وحين تسعل ينتفخ شداها كشدقي اييها ، وتقلد
صوته الخشن ، وتقف في صحن الدار كما يقف ،
وتلقي برأسها الى الورااء في خيلاء كما يفعل ، نافخة
شدقيها ، واضعة يدها اليمنى في خصرها •

من يراها في تلك اللحظة كان يظن انها حميدو •
هي نفسها كانت تظن انها حميدو • وتدب على
الارض بقدمين قويتين وتشمّر جلبابها عن ساقيهما

الرفيعتين الصلبتين ، وتجري نحو الصبيان صائحة انسا
حميدو • ويلعبون عسكر وحرامية ، او لعبة القطار ، يمسك
كل واحد منهم بذيل الآخر ، وينطلقون يدبون على
الارض ويصفرون •

وترتفع الصفارة في الليل • ويرتج جسد حميدة
الصغير وهي واقفة قرب القطار • وتكتشف الظلمة من
خلفها على شكل يد كبيرة تندفع بقوة في ظهرها
وتدفعها الى الامام • وتجري حميدة في الظلام، لكن
الظلمة تنشق بعد لحظة عن عشر عيون صفراء تلمع
كالازرار النحاسية ، ونصل ايض حاد يتدلى في الخفاء
بحذاء الساقين الطويلتين • وتلف طرحتها السوداء حول
رأسها وكتفيها وصدرها وبطنها ، وتنزلق في سواد
الليل كقطعة من سواد الليل • لكن الساقين بصلهما
الحاد تجريان خلفها ، والقدمين الكبيرتين تدبان
وراءها ، ديبا له رنين كاصطكاك الحديد بالحديد •



حميدو كان لا يزال في الخدمة • في كعب حذائه
قطعة من الحديد تدق على الاسفلت في بطء وثقل كحافر

بغل مصاب بضربة شمس • الشمس كانت حارقة ، فالمدينة هي القاهرة والوقت هو الظهيرة والشهر اغسطس • ورأس حميدو املس حليق بغير شعرة واحدة • القرص الملتهب الاحمر يلتصق بجلدة الرأس ، وعيناه ثقبان تنفذ منهما النار المتجمعة داخل الجمجمة ، وانفه ايضا له ثقبان يقذفان اللهب واذناه بالمثل ، وفتحة الفم ، وفتحة الشرج ، كل فتحات جسمه تغرز النار الحمراء قطعا متجمدة صغيرة وساخنة كالدم المتجلط •

حملق في القرص الاحمر الدائري • رآه قرصين اثنين احمرين ، داخل كل قرص دائرة سوداء كالنبي تلمع ، وحول النبي دائرة بيضاء صافية كعيون الاطفال • حملق في العينين وتعرف على اللمعة • صاح : « حميدة » ، وشد الآلة الصلبة من جوار فخذة الى فوق ، وصوبها في النقطة المحددة بالضبط ، ففي منتصف المسافة بين العينين • وسمع صوت ابيه الخشن : « اضغط » • وضغط على الزناد •

سقط الجسد متضرجا بالدماء ، والعينان مفتوحتان ثابتتان مرفوعتان الى السماء ، والسماء مكتظة بالآلهة وقد جلس كل منهم واضعا ساقا فوق ساق ، والساق

العلوية متدلية من بين السحب (وبذلك تكون مرئية بالعين
المجردة) تهتز بحركة افقية منظمة كبندول الساعة .
والشمس كانت قد غابت والليل هبط فعزفت الموسيقى
النشيد الوطني احتفالا بالنصر ، وارتفعت الاكف
بالتصفيق حاملة الجسد الميت الى فوق . لامس انف الميت
بطن قدم احد الآلهة وشم الرائحة المألوفة التي
تنبعث من الاقدام التي لا يغسلها اصحابها . اشاح
الميت بانفه بعيدا عن الآلة ، فارفع الهتاف وانشق الجراب
الاسود عن وسام الاستشهاد في ميدان الشرف .

مد الميت يده الملوثة ببقع سوداء (بسبب جفاف الدم)
ليتسلم الوسام . امتدت بسرعة يد اخرى نظيفة
واظافرها مشدبة واخذت الوسام . لوح الميت يده في
الهواء في غضب فامتلات الظلمة بكشافات الضوء
الاصفر مستديرة وجاحظة كالاضرار النحاسية .

وانفرجت شفتا حميدو في اندهاش ، وسقط جسده
الميت بين السيقان الطويلة يتدلى من بينها آلات القتل
الصلبة ، وانفرمت قدمه الحافية تحت الاحذية السميكة
ذات الرقبة . واصبحت الارض كالعجين غاصت بها قدمه

اثنائية ، وساقاه غاصتا الى الركبتين ، ثم الى منتصف
فخذيه، حتى اعلى الفخذين ، الى منتصف بطنه .
بالتدريج كان يغوص الى منتصف صدره . والتفت
قبضة الارض حول عنقه ، فأرخی رأسه فوق الارض ،
ووجدها دافئة حانية كصدر امه ، فدفن وجهه بين ثدييها
واستطاع ان يضع انفه تحت الثدي الايسر . المكان الامين
القديم المفضل لديه . لكن امه ابعدهته بيدها القوية
كيد ابيه . ورفع رأسه الى فوق فرأى يد ابيه الكبيرة
باصابعها الطويلة تلتف حول الوسام ، وعيناه الواسعتان
السوداوان ذات الشعيرات الدموية تحمقان في عينيه . مد
حميدو يده ، لكن يده رغم الزحام ظلت ممدودة في الهواء .
حملت العيون في اصابعه الملوثة بالدم ولم يصابحه
أحد . (كان الناس في ذلك الوقت يحترقون المقتول
ويحترمون القاتل) . وحميدو لم يكن قاتلا . هو الذي
حدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين وهو الذي
ضغط على الزناد وهو الذي قتل . لكنه قتل بغير
ان يصبح قاتلا . فالقاتل هو صاحب العار الذي لم يلوث
بديه .

لكن العار لم يكن عار حميدو ، وكان عليه ان
يفسله فحسب (توزيع الاختصاصات كان احدى سمات

التقدم ، فالبعض يقوم بالعار والبعض يقوم بعملية
الغسل) • يسكب الماء من الجردل ويغسل كل شيء
بعناية ، الشعر والرأس والاذرع والارجل ، وثنيات الجلد
تحت الحوافر • ويسمع الصوت الأمر من الداخل يقول :
« خذ الحوافر فهي نصيبك » • وتستقر الحوافر داخل
جريدة من الجرائد اليومية ، وتدخل التاريخ باسم الزكاة ،
يحملها حميدو تحت ابطه ، ويسير في الشارع مزهوا
بها ، ومن حين الى حين ينظر تحت ابطه ، ويرى الشعر
الاسود الغزير ينشق عن وجه ابيض بغير دم ، والعينان
الميتتان واسعتان مرفوعتان الى السماء •

وباستطلاع غريزي حملت عينا حميدو في السماء ،
ورأى النجم الوحيد المحترق ، ذيله الطويل الرفيع يشي
لامعا فوق السواد كخط من الدم الطازج الذي لم يتجمد
بعد • ثم هبت نسمة جففت الدم ، واصبح النجم لونه
اسود ، والسماء كتلة واحدة مصمتة بغير مسام على
الاطلاق •

وهبط رأس حميدو فوق صدره ، فهبط من عينيه
خيوط طويلة ساخنة وانزلت من زاوية فمه يجري تحت
لسانه بطعمه الملح المألوف كماء المخلل •

ضغظ فكه العلوي فوق السفلى وابتلع العلقم • لا
مهرب له من الكراهية • انها تغزوه من جميع منافذ
جسده ، وتدخل اليه بطعمها المالح المر من شقوق جلده
وفتحات جسمه ، وتتكوم في جوفه يوما بعد يوم ، وسنة
بعد سنة ، ويصبح جوفه كقاع زلعة المش ، فيملأ فمه
بالدخان الاسود ، ويطرد الهواء من صدره ، وابتلع
الدخان وحده •

عرفت حسيده رائحة الدخان • التبغ كانت تشتريه من
الدكان • لكن الرائحة هذه المرة مختلفة ، ممتزجة برائحة
اخرى لا تعرفها • كرائحة دورة المياه بعد ان يحلق
سيدها ذقنه • تناوله المنشفة باصابعها الصغيرة ، وتري
عينيه في المرآة ، واسعتين تشعان من البياض ومن
السواد ضوءا نحاسيا اصفر •

ويستقر الضوء عليها ، رغم انها تختبىء وراء باب
المطبخ • جسدها الصغير منكمش تحت جلبابها المبلل ،
وكتفاها غير مستويتين • الكتف اليسرى اعلى من الكتف
اليمنى ، وجذعها يميل ناحية اليمين ، بسبب سلة
الخضار الثقيلة ، تشد ذراعها اليمنى الى أسفل ، وقدامها

اليسرى تلمس الاسفلت الملتهب باطراف الاصابع ،والقدم اليمنى تلمسه بمؤخرة كعبا الحافي • من يراها يظن انها عرجاء • لكن حميدة لم تكن عرجاء • كانت جائعة فحسب • فمدت يدها في السلة وتسلت اصابعها الصغيرة الرفيعة تحت الخضار حتى احست ملمس اللحم الطري • شدت قطعة ودستها بين اسنانها قبل ان يراها أحد •

اسنان حميدة صغيرة بيضاء لكنها حادة ، تقطع اللحم النيء وتهرس العظم • اسنان بدائية نبتت فوق فكها منذ قرون ، قبل ان تبتلع الشوك والسكاكين وغيرها من الاجهزة الحديثة (بسبب هذه الاجهزة فقدت اسنان سيدها قوتها واصيبت لثته بمرض البيوريا) • وعيناها ايضا بدائيتان قويتان ، تريان الاشياء من على بعد ، واذناها قادرتان على التقاط اي صوت مهما بعد • (اذنا سيدها فقدتا ايضا هذه القدرة بسبب اكتشاف المخابرات للاجهزة السمعية الحديثة) •

وسمعت حميدة صوتا، فرفعت عينيها الى فوق • ورات رأس سيدها يطل من النافذة المزركشة في العمارة

العالية • وبسبب الارتفاع الشاهق كان رأس سيدتها بحجم
رأس الدبوس • لكن حميدة رأتها بوضوح، ولمحت العضلة
السمينة المكتظة باللحم تنقلص تحت فتحتي الانف
الواسعتين نبت فيهما ومن حولهما الشعر • ادركت من
اهتزاز الشعر ان سيدتها شمت رائحة اللحم المهروس تحت
ضروسها • أنكرت بطبيعة الحال ، لكن قطعة لحم صغيرة
كانت لسوء حظها قد انحسرت بين ضرسين ، شدتها
من بينهما اصابع سيدتها البضة بالملقاط ، ووضعتها
فوق كفها تحت اشعة الشمس وارتدت نظارتها الطيبة
وفحصتها •

لم تضربها سيدتها هذا اليوم • حدثت مشادة
بين سيدها وسيدتها بعد الغداء الدسم ، انتهت بالاتفاق
على مبدأ مساواة المرأة بالرجل في الاشراف على الخدم ،
واصبح على سيدها ان يقوم بعملية الضرب هذه
المررة •

رقدت حميدة على ارض المطبخ • سمعت وقع
القدمين الكبيرتين • اغمضت عينيها وانتظرت • احسنت
الاصابع الطويلة ذات الاظافر المشدبة ترفع عنها الجلباب
المبلل • تعرّت ساقاها الصغيرتان وفخذها وردفاها حتى

منتصف الظهر والبطن • حملت العينان الصفراوان في
البطن لامعتين بضوء نحاسي • سقط الضوء الاصفر على
البطن • بطن مشدود ، عضلاته تنقبض بقوة ، يهبط
الى فخذين بدائيتين ، قادرتين على الحركة في اي اتجاه،
وبكل قوة تقاومان وترفسان. واندفعت قدمها الصغيرة
في بطنه العالي المترهل ذي الثنيات الطولية • امسك
قدمها في يده الكبيرة • وادرك لاول مرة شكل قدم
المرأة • فالقدم لها اصابع، خمسة اصابع ينفصل كل اصبع
عن الآخر • قدم سيدتها لم يكن لها اصابع ، اذ ان
اصابعها التصقت بعضها ببعض في كتلة لحمية طريسة
كخف الجمل •

وزحفت يداه فوق الساقين • واحس حركة العضلات
القوية تحت كفه، تنقبض وتنبسط • عضلات سيدتها
لم تكن لها حركة • خامدة ، ساكنة ، تغوص فيها اصابعه
بغير مقاومة كما تغوص في كيس من القطن (كان
ذلك طبيعيا بسبب موت سيدتها السابق في حجرة النوم) •

بهرتة حركة اللحم الحي، كخنزير يخرج فجأة من
خرابة عاش فيها سنوات على الرمم واطراف الجثث •
انتفض بالنشوة فسقطت عنه ملابسه ، ولامس جسده

الساخن البلاط البارد المبلل بماء المسح ، تقلصت عضلاته
المرتخية المترهلة وسرى في عموده الفقري تيار كهربى •
دبت الحياة في حواسه الخمس وبدأ انفه المرتعش بفتحته
الواسعتين يختلس من تحت الحوض رائحة القمامة • جذب
بكل قوته شهيقا عميقا وملاً صدره بالرائحة النتنة • سرت
الرائحة في جسده وسرت معها ذكرى قديمة منذ الطفولة
لاول لذة جنسية •

لكن حميدة منكمشة في الركن ، ملتصقة بالجدار ،
تسرى فوق جسدها رعشة ، وذكرى قديمة لاول ضربة ،
وعيناها السوداءوان المتسعان بالذعر ، ثابتتان فوق العصا
الغليظة من الخيزران • كانت العصا مخفية تحت ملابسه
او وراء ظهره ، ثم في لحظة خاطفة شدها ورفعها في
وجهها منتصبه صلبة • وبسرعة تفوق سرعة الضوء صوبها
على النقطة المحددة في منتصف المسافة بين عينيها •
وضغط على الزناد •

صرخت حميدة • دوت صرختها في الليل المظلم
الساكن كصوت الطلقة • تقلبت سيدتها في كفنها الحريري
من جنب الى جنب • هبّ بعض الناس (بسبب نومهم
الخفيف فحسب) واضيئت الانوار ، وانفتحت النوافذ

المغلقة والابواب المغلقة ، واشراأت الاعناق وامتدّت •

لكنها لم تصل الى شيء • المطبخ له اربعة جدران
وسقف وباب • والباب له قفل حديدي وسلسلة حديدية •
وكل شيء عاد الى ما كان عليه • اطفئت الانوار ،
وانغلت النوافذ والابواب • كل الاشياء انغلت • وعمّ
السكون ، وتجمعت الظلمة فوق بلاط المطبخ ، وتكثف
في الركن وراء الباب على شكل جسد صغير عار ، يجري
من تحته خيط طويل رفيع من الدم ، وعينان واسعتان
دامعتان تبرقان في الظلمة كعيني طفل •



اللمعة عرفها حميدو من على بعد ، منذ كان طفلا ،
تجذبه نحوها كضوء النجم • نجم وحيد ساهر في سماء
سوداء مصمتة بغير مسام ، وحميدو يسير وحده في الظلام
بكعبه فوق الاسفلت ، عيناه مرفوعتان نحو النجم ،
ويداه فوق صدره ملوئتان بدم قديم اسود ، وتحت الاظافر
سواد كالطين ، ومن حول الاصابع بقع بنية قاتمة بلون
التبغ • يمزق سعاله الليل ، ويشق الظلمة بصاقه الابيض
ويستقر على الاسفلت بجوار قدميه ، مكورا كقطعة من
اللحم الابيض تتخللها شعيرات رفيعة من الدم •

اقتنوا اثره المدمم فوق الطريق وامسكوه واعادوه الى
الخدمة • رفع الطبيب باطراف اصابعه النظيفة ذات الاظافر
المشذبة سرواله الدمور • فاحت رائحة الجسد الميت ،
فأشاح الطبيب بوجهه بعيدا عنه ، وكتب بقلمه الباركر
التشخيص : « لا يصلح الا للخدمة بالبيوت » • واصبح
حميدو مراسلا (اللقب القديم لخادم البيت) •

واخذوا منه العهدة : الحذاء الجلدي بالرقبة والكعب
الجديد ، البدلة والكتفين المحشوتين بالقطن والقش ،
والازرار النحاسية الصفراء ، خمسة ازرار فوق كل كتف ،
وعشرة فوق الصدر ، والحزام الجلدي العريض ويتدلى
منه الجراب يخفي النصل الحاد كالسكين •

تحسس حميدو جسده في الظلام • وجد الجلباب
الواسع القديم ، يتدلى فوق فخذيته كجلاليب النساء ،
وكتفاه نحيلتان وغير افقيتين ، ككفي ميزان غير معدول ،
الكف اليمنى هابطة الى اسفل تشد معها الذراع
والكتف ونصف الرأس الايمن • والسبب معروف •
(خدم البيوت كانوا يحملون سلة الخضار باليد اليمنى) •
ولان السلة كانت دائما ثقيلة ، مملوءة حتى الحافة
بالبطاطس والطماطم والخرشوف ، وفي القاع يرقد الجسد

المذبوح ، والدم الساخن الاحمر ينشع من الورق الابيض
المصقول ، والقلب لا زال يرجف بحركة غير مرئية ،
والعينان السوداوان الميتتان مفتوحتان مرفوعتان الى اعلى ،
دامعتان ، تلمعان في الظلمة كعيني طفل .

حملق حميدو في عيني الطفل في دهشة . لم تكن لهما
لمعة عيون الاطفال . كانت لمعتهما نحاسية كعيون الكبار .
ركب الطفل فوق ظهره ، الركبتان فوق العنق ، والفخذان
حول الظهر وكل ساق على كل جانب ، وكعب الحذاء بحذاء
البطن .

هزّ الطفل ساقيه كما يفعل الاطفال حين يركبون
الحمير ، سار به حميدو على يديه وركبتيه ، والطفل من
فوقه يهتز في سعادة ، وفي يده عصا رفيعة من الخيزران .
الشمس كانت في منتصف المسافة بين العينين ، والشارع
اسفلت احمر ملتهب ، والحصى احمر ملتهب . حصاة حمراء
دخلت في الركبة اليمنى فتوقف حميدو ليسعل وعجزت
عضلات صدره عن ان تنقبض وتطرد الحصاة .

تدلّى رأسه فوق صدره كراس الحمار المريضة ،
فاندفع الحذاء في بطنه مديبا كالسكين . صرخ . لكن
عضلات بطنه عجزت عن ان تنقبض وتطرد الصرخة . لفّ

يديه حول بطنه ليحميه من الحذاء فانقض عليه الطفل وعضته
في بطن ساقه •

دخلت الانياب في لحمه • وصلت العظم حتى النخاع •
ضغط فكه العلوي فوق السفلي وابتلع الالم • تكوّم
الالم في النخاع مديبا صلبا كقطعة زلط • ضحك الطفل
في سعادة وضرب قطعة الزلط بيوز حذائه • طارت
الزلطة في الهواء ثم استقرت في البطن • البطن كان
ساخنا والصدر ساخن ، مملوء بالدم ، والرأس حليق بغير
شعرة واحدة تفصله عن قرص الشمس •

مشت النار في جسده • استسلم لها تماما وتركها
تغزوه من جميع منافذ جسده ، فاتخذ وضع الحمامارة
المريضة وزحف على قدميه وركبته ودخلت الكراهية
بطعمها الحارق من مسام جلده وتراكت في القاع
متجمدة وحمراء كقطعة الفحم المتقدة • مدّ يده ليشد
آلة القتل • ارتطمت اصابعه بفخذه الميتين • العضلات
مرتخية متهدلة تحت الجلباب • اختفى وراء باب المطبخ
ورفع الجلباب • لم يجد الآلة الصلبة بحذاء الفخذ ،
وارتطمت عيناه بالشق المسدود الاسود كالجرح القديم ،
فسقط رأسه فوق صدره •

ورنّ الصوت الأمر ينادي • حميدة • خرجت حميدة
مطرقة من وراء باب المطبخ • جلبابها المبلل يلتصق بجسدها،
وعلى جدار بطنها علامة محفورة في الجلد ، على شكل
حذاء • وتحت الجدار تنمو الكراهية كالجنين ، تتكور
كالعجين، وتعلو يوما بعد يوم ، تنتفخ بالماء وتتخمر
وتفوح الرائحة •

التقطت اجهزة الامن الرائحة • دائما هناك اجهزة للامن،
لها عيون ترقب ، وانوف تشمّ • كتمت حميدة انفاسها
ومسحت بطن يديها بكفيها قبل ان تمد يدها الصغيرة
من بعيد بكوب الماء • التفت اصابع سيدها ذات
الاذن الاظفر المشدبة حول الكوب البلوري • واشاح بوجهه
بعيدا عن الرائحة • لكن الرائحة نفاذة ، وصلت الى
انف سيدتها الميت في حجرة النوم ، فانتصبت شعيراته
المرتخية واصبحت صلبة مديية كالدبايس •

أنكرت حميدة بطبيعة الحال ، لكن جسدها كان
الجريمة • اخذوا منها الجسد وتركوا لها الجريمة •
كالنحل ينصّ الزهرة ، يرشف الرحيق ، ثم يلقي المصاصة
بعيدا بيد قوية • اندفعت اليد في ظهرها كاللكمة •
الطريق كان مظلما ، والليل اسود فحملت في الظلمة •

تعرفت على قبضة امها في ظهرها ، فرفعت عينيها الى
عينيها ، وكادت تناديا . لكن امها كانت واقفة بغير
حرك . صدرها ثابت ، ورأسها ثابت ، وعيناها ثابتان
ورموشها ثابتة .

سارت حميدة بجوار التمثال الحجري وتركته خلف
ظهرها . . دبّ الصمت في الليل وادركت انها وحيدة .
جلست على دكة حجرية بجوار النيل . ملأت صدرها
بهواء النيل . هواء راكد حزين . دخل الحزن صدرها
مع الظلمة ، فادركت انها ولدت بغير ام ، وان جدتها
لايها كانت جارية في بلاط سيدها ، وانها ماتت
مقتولة بسكين ايها .

تركت جسدها فوق الدكة مرتخيا ، مفتوح المسام ،
يغزوه الحزن من جميع المنافذ . ملأها الحزن حتى الثمالة ،
واعطاها قوة . والحزن لا يعطي دائما . انه نادرا ما
يعطي . يختص بعطائه نوعا نادرا من الناس ، قادرا
على مبادلته العطاء ، وحميدة قادرة على ان تعطي الحزن
نفسها كاملة . تتفرغ له وتعيش عليه . تأكله وتشربه
وتهضمه وتجري عصارته في دمه ، وتفرزه امعاؤها ،
وتفرزه مسام جسدها ، ويسيل فوق جلدها كخيوط

رقراقة ، تلحقها بلسانها وانفها وتبتلعه مرة اخرى في جوفها ، وتهضمه ثم تعود تفرزه •

من يراها واقفة منتصبه في الليل وحدها يظن انها تمثال رمسيس • ذيل الماء يمشي فوق خديه وعنقه وكتفيه وفخذه وقدميه • يمشي بهوادة ، دون ان يشعر بحركته ، ويظل هناك فوق الجلد ، ورغم نسمة الليل الجافة لا يتبخر، بل يدخل مسام الجلد ، ويعود من حيث اتى الى منبعه الاصلي في رحم الام •

الحزن هو ولا شيء غيره • الجنين الابدي في رحمها تعيش له ويعيش لها • يدخل او يخرج حيثما تشاء له ان يدخل او يخرج • وحينما تريد له الخروج يصبح طفلها • طفل طبيعي ليس كالاطفال الصناعيين الذين يولدون بشهادة مكتوبة بالحبر ويجري الحبر الاسود حيث الدم الاحمر ، واعضاءهم التناسلية تبتتر والشعر يثجتث من فوق الرأس ، وبحذاء كل فخذ لعبة اطفال على شكل مسدس •

طفلها لم يعرف اللعب بالمسدسات او العرائس او اي لعب اخرى ، فاللعب للاطفال وهو ليس طفلا • يولد واقفا على قدميه ، ويجري بين اكوام السباح ويضحك وحده •

هذه الضحكة هي التي تميّزه عن الاطفال • فهي ضحكة
بغير صوت ، بغير حركة في عضلات الوجه ، لكن عينيه
الصغيرتين تكسوهما دمة كاللمعة ، تشعّ من تحتها
نقطة ضوء ، كنجم وحيد ساهر في سماء بغير قمر •

سارت حميدة في الليل تبحث عن طفلها • دارت
حول اكوام السباخ • نظرت خلف صفائح القمامة • رأت
بجوار الجدار جسدا صغيرا متكورا حول نفسه • عرفته
على الفور • مدّت ذراعيها في الظلام لتحوطه بصدرها •
شقّ الظلمة ضوء اصفر وظهرت العين النحاسية •
دائما هناك عين مستديرة ترقب بغير جفن كعين الثعبان ،
والذيل طويل ناعم • لم تخذعها النعومة ونظرت خلف
الذيل • رأت آلة القتل مخفية تتدلى بحذاء الفخذ •
لم يكن ثعبانا • كان حية اثى • لكن حميدة كانت
تدرك ان اي شيء يقتل لا بد ان يكون مذكرا ، فصرخت
لطفلها : « احترس منه ، سيقنتك ! » •

دخلت الانياب في بطن الساق الصغيرة الرفيعة •
سال الدم كذيل طويل رفيع • بلل اصابعها الصغيرة ،
وهبط الى بطن قدمها • رفعت رأسها الى فوق ، ورأت
عيني امها الواسعتين السوداوين ثابتتين في عينيها ،

تنظران اليها في صمت، والطرحة السوداء تغطي رأسها وصدرها وبطنها • فتحت فمها لتسأل ، لكن الكف الكبيرة اصبحت فوق فمها ، والانفاس والهواء وحفيف الشجر كلها اصبحت بغير صوت ، تجمدت في كتلة سوداء صماء بغير مسام ، والطرحة السوداء ذابت في الليل كما تذوب قطرة الماء في البحر ••

لكن الساقين تدبان من خلفها ، طويلتين شاهقتين كالموجة العالية ، تتبعها في الخضم ، ترصد مكانها ، تغوص معها الى القاع ، وتطفو كالجثث فوق السطح، وتتوه معها في وسط البحر ، ثم تعود تظهر عند الشط ، وترتطم معها فوق حافة الصخر ، وتضيع في الزبد الابيض ، تتأرجح معها بين المدّ والجزر •

المدّ كان ضعيفا والجزر أضعف • فالبحر لم يكن بحرا ، وانما نهر النيل ومياهه راكدة في القاع ، حركتها بطيئة ، ثقيلة ، كقدم نصف مشلولة ، تدوس فوق الارض وتثبت ولا ترتفع مرة اخرى لكن حميدو يشدها بكل قوته ، بكل عضلات الساق الرفيعة المعوجة ، وترتفع القدم فوق الارض وتثبت ، ولا تهبط مرة اخرى، لكن الارض تشدها بكل قوتها فتسقط فوقها ثقيلة كقدم من حجر •

الصباح كان مبكرا والشمس لا تزال مائلة ، فارتسم
ظله فوق الارض • طويل ورفيع معوج • كقوس قزح •
الرأس حليق ، والكتفان غير مستويتين ، كتف اعلى من
كتف ، وساق اطول من ساق ، كالأعرج ، والاطفال من
خلفه يضحكون ، ويركبون فوق ظهره •

اصوات الاطفال وصراخهم يترامى اليه من فوق
رأسه ،واقدامهم تدبّ فوق ظهره كعجلات القطار ، كل
واحد يمسك بذيل الآخر ، ويصفرون ، وترتفع الصفارة في
الجو فيجري كل منهم ليختفي من « المسافة » وراء كوم
سباخ او في الزريبة او خلف عمود النور •

عمود النور كان طويلا ممتدا في السماء ورأسه يلتصق
بالقمر • القمر كان نوره ابيض ، سقط على وجه حميدة
وهي مختفية وراء العمود ، فأصبح وجهها ابيض ، وذراعاها
بيضاوين ، وساقاها بيضاوين ، وجسدها ابيض املس
منزوع الشعر • لكن منابت الشعر ظلت بارزة في قشعريرة ،
سرت فوق جلدها •

امتدت يدها البيضاء ولمست جلدها • جسدها
وحده هو الذي يطمئنها • كل الاشياء الاخرى خارج
جسدها غير مطمئنة • اجسام غريبة تكمن في الاركان ،

ووراء الجدران وخلف الابواب ، وفي ثنيات الشوارع
المظلمة ، وفي زوايا كل شيء • الزوايا من الخارج تبدو
ملساء بريئة ، كأنها لا شيء داخلها ، ولكن حينما ينفرج
الضلعان وتتباعد الساقان تظهر آلة القتل بوضوح
صلبة ومنتصبة •

تصرخ حميدة • صرختها غريبة ، ليس لها صوت
الصرخة المألوف حين يصرخ الانسان فزعا او طلبا للاستغاثة •
فلم تكن حميدة تستغيث بأحد • كانت تعرف ان الطريق
خال ليس فيه احد ، والنوافذ مغلقة والابواب مغلقة
والانوار مطفأة والاصوات معدومة ، وكل شيء معدوم
كالصوت •

لم تكن صرخة استغاثة ، ولكنها حادة وطويلة
وممتدة ، كأنها ملايين الصرخات اتصلت والتحمت في
صرخة واحدة تمتد بامتداد الليل ، وتتلحم بملايين
الذرات السوداء التي تصنع الظلمة والصمت •

ولم تكن ايضا صرخة فزع او خوف • لم تكن
حميدة تخاف الظلمة او الصمت او حتى الموت • فهي جزء
من الظلمة ، وضوتها هو الصمت ، اما الموت فهو يعيش
معها • تحمله كالجسد الثاني على جسدها • كشخص

آخر ميت يعيش داخلها • يحتل الفراغ في جوفها ويفرد ذراعيه وساقيه ويتمدد ، وتفوح رائحته من عينيها واذنيها وانفها وفمها وجميع فتحات جسمها • وفي الليل حين تشتد الظلمة وتشتد الوحدة تمتد يدها فتحسه الى جوارها ، ملاصقا لها ، وفي حضنها انفاسه تختلط بانفاسها وحرارته كحرارة جسمها •

وضعت حميدة يدها على ظهرها فشعرت بالامان • جسدها ساخن ناعم امس الزوايا • من يراها من الخلف يظن انها طفل • وحين تستدير ويرى عينيها يدرك انها عجوز ووجوه العجائز كوجوه الاطفال ليس لها جنس • وحين تهبط العين الى بطنها النامي بالجنين الحي يعرف انها امرأة • ويختار المرء في تحديد عمرها ، فالحقيقة ان حميدة ليس لها عمر • وهذا هو حال الاطفال الذين يولدون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحدد تاريخ الولادة • وانهم يعيشون فوق مستوى الحكومة ، وفوق مستوى التاريخ ، وفوق مستوى الزمان والمكان ، لا ينتقلون كالبشر العاديين من مرحلة الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة ، ويعيشون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحرر تواريخ الوفاة • ينجون من الزمن كالآلهة ،

ويعيشون الى الابد ، حياة واحدة ممتدة بغير مراحل •
يولدون كبارا ثم يصبحون عجائز بغير مرحلة طفولة
او شباب • ثم يرتدون فجأة من الشيخوخة الى الطفولة
او من الطفولة الى الشباب • يرتدون في لحظة سريعة
خاطفة اسرع من قدرة العين على الرؤية ، فاذا بالعين
عاجزة عن اكتشاف حقيقتهم ، ويبدو الواحد منهم طفلا
وشابا وعجوزا في اللحظة نفسها والمكان نفسه •
واحيانا يسيرون في الطرقات وهم موتى وتكاد تزكم
رائحتهم الانوف ، ومع ذلك تظل العين عاجزة عن التفرقة
بينهم وبين الاحياء •

التجاعيد في تلك الاحوال لا تهم كثيرا ، لانها لا
تبدو للعين تجاعيد وانما تلك الخطوط الطبيعية التي
تظهر على وجه الطفل حين يضحك بشدة وبغير صوت
مسموع •

حميدة كانت لا تزال وراء عمود النور ، وجهها
متورم مستدير تحت الضوء ، ابيض بلون الدقيق ، تخفي
تحت المسحوق التجاعيد ، وشفاتها المشققتان (بسبب
الجوع) تغطيهما قشرة حمراء مدممة ، وصدرها بارز من
فتحة ثوب مقطوع ، وبطنها بارز ، وكعباها المشققان

بارزان من حذاء كالشيشب بغير كعب ، وشعرها غزير
اسود كقطعة من الليل يغطي بالسواد رأسها
وصدرها وكل جسدها ، ويطل من تحته عنقها الابيض
كجذع شجرة تخرج من غابة نبتت جذورها في ارض
رطبة .

من يراها يظن أنها امرأة ليل ، مع انها لم
تكن امرأة ولم يكن الوقت ليلا . كانت الشمس رأسية
في منتصف المسافة بين العينين ، وحميدة تحمق في
القرص الملتهب الاحمر ، لا يطرف لها جفن ، ولا تختلج
في وجهها عضلة . تنظر اليه بكل قدرتها على الصبر .
وتراه بوضوح في مركز الدائرة كالقوس ، طويل ورفيع
ومعوج ، يتحرك امام عينيها بحركته البطيئة ، كتف
اعلى من كتف ، وساق اطول من ساق ، كالأعرج . عرفته
على الفور وكادت تهتف حميدو . لكنها خشيت ان
يكتشف مكانها وراء العمود ، ويتعرف على بطنها المنتفخ ،
ويشد آلة القتل .

أطبقت شفثيها وكنمت انفاسها . لكنه شم رائحتها
(رائحة حميدة قوية نفاذة كرائحة الموتى) فتوقف عن
المسير ، ومدّ يده الطويلة الرفيعة خلف عمود النور . لم

تمسك يده شيئاً • ناداها بصوت مألوف غير مسموع
مقلدا صوتها : « حميدة » ، وثنى جذعه فالتوى نصفه
الاعلى فوق الاسفل مقلدا شكل جسدها • كان التقليد
مصنوعا باتقان شديد (بسبب تقدم الصناعة
والتكنولوجيا) الى درجة ان حميدة اختلط عليها
الامر ، وظنت ان الصوت صوتها ، والجسد جسدها ،
فخرجت من وراء العمود مطمئنة ، وسارت كعادتها مطرقة
رأسها ، وحينما رفعت رأسها الى فوق ارتطمت عيناها
بالعينين الصفراوين ، فرأتها من هول المفاجأة أربع
عيون ، وتضاعف العدد في لحظة خاطفة ، وحوطتها
العيون الصفراء ، عشرا فوق الصدر من الامام مستديرة
ومتراصة في وضع رأسي ، وفوق كل كتف خمس في وضع
افقي ، تشع كل عين ضوءا نحاسيا اصفر •

ورن الصوت المعدني فوق الاسفلت كاصطكاك الحديد
بالحديد • ما اسمك ؟

قالت بصوت غير مسموع : حميدة •

مشيت الموسيقى الحادة فوق جلدة رأسها وسقط شعرها
الناعم الغزير في الجردل ، وهبطت الموسيقى الحادة الى
جسدها ، ومشيت فوق جلدها تجتث الشعر ، وحينما

وصلت الى اسفل البطن عثرت بين الشعر الاسود على البرعم الصغير الابيض، كالعصفور الوليد ، فاجتثته من جذوره ، وتركت مكانه جرحا عميقا في اللحم كالشق المسدود . (سميت هذه العملية الجراحية « بالطهارة » في ذلك الوقت وكان هدفها ان يصبح الانسان « طاهرا » بغير اعضاء جنسية) .

رقدت حميدة فوق الارض الاسمنت ، تحوطها اربعة جدران من الاسمنت ، وذراعها وساقها مشدودة مربوطة في حزمة واحدة، واحزام من المعدن الصلب ، يتدلى قفله الحديدي من بين فخذيها (دخل التاريخ باسم حزام العفة) ، وتصطك سلسلته بالارض الاسمنت كلما حركت ساقيها او ذراعيها .

جسدها الناعم الصغير من تحته بركة من الدم ، تدخل في شقوق الارض ، وفوق الجدران دم على شكل اصابع آدمية ، دم اسود قديم ، كالبقع ، ملايين البقع ، من كل عمر ومن كل جنس ، اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمرة ولكل واحد بقعة مميزة كبصمة اليد .

وضعت حميدة طرف اصبعها الصغير في الشق ، فخرج

مبلا بالدم ، مسخته في الجدار، وطبعت فوق الاسمنت بصمتها كالختم . (الأميون جميعا امثال حميدة يختمون على الوثائق الرسمية بهذا الشكل) . وتمتد الاصابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق الوثائق . ملايين الوثائق ومن فوقها ملايين الاختام ، اختام سوداء خطوطها متعرجة مشرشرة كارجل الصراصير، او الذباب او الجراد . كثيرون ومنتشرون فوق الارض ، بالليل وبالنهار ، فوق الكباري ، فوق السواري ، عند ثنية كل شارع ، وراء كل بيت ، خلف كل جدار ، داخل كل شق من شقوق الارض ، رؤوسهم العارية الحليقة تطل فوق السطح، واجسامهم النحيلة مقوسة داخل الشق وبطونهم مجوفة خالية من الاحشاء الداخلية ، بغير كبد وبغير قلب وبغير معدة ، وبغير مصارين والجوف الواسع الخاوي اصبح مخزنا سرياً يعبتون فيه الكراهية (المكان الوحيد الذي لا تصل اليه اجهزة الامن في ذلك الوقت . تقدمت الاجهزة العسكرية حديثا واخترع في الطب جهاز للاشعة يكشف عن الاجسام الغريبة في جسم الانسان ، ومنظار الكتروني يوضع في فتحة الشرج ويكشف عن محتويات التجويف الداخلي) .

سقطت اشعة اكس فوق بطنها المنتفخ • ظهر التجويف مملوءا حتى الحافة بالكراهية ، طبقة فوق طبقة ، فوق طبقة ، ملايين الطبقات الرقيقة كرقائق من معدن شفاف ، تكونت بعضها فوق بعض في كتلة معدنية مصمتة وصلبة • تحصسها الطبيب باصابعه الناعمة المشذبة الاظافر ثم صرخ: بارود • فانهاالت المعاول تشقّ الارض وقلبوا الشقوق رأسا على عقب ، وعثروا على خزائن البارود جميعا (اشاد التاريخ بالانتصار الذي حققته اشعة اكس في علاج الاورام السرطانية من الجسم) •

لكن السرطان مرض خبيث ، أخبت من التاريخ ، والورم ظل ينمو داخل بطن الارض ، وحينما تضع حميدة يدها تحتها تحسه ساخنا فوق كفها ، سخونة جسمها وتشعر بالطمأنينة فتقرب اصابعها من انفها ، وتشم الرائحة المألوفة ، كرائحة كوم السباخ ، او صفيحة القمامة ، او قطعة اللحم الميتة ، تشمها بفتحتي انفها وتملأ بها صدرها ، فهي رائحة حياتها •

حرك حميدو رأسه ناحيتها • جذبته الرائحة المشتركة • كان من الممكن ان يتعد ويهرب ولكنه اتجه نحوها بحكم المصير المشترك • توقف عند الجثة الميتة

فاردا قامتة الطويلة راسما ظله على الاسفلت ، طويلا ورفيعا ومعوجا ، وبخذاء الفخذ يتدلى النصل الابيض وعليه بقع سوداء كالدم - فتح صدره وملاه بهواء الليل ، ادرك انه ولد بغير ام ، وان جده لاييه كان جنديا في جيش محمد علي ، وانه قتل في السجن .

عرف فجأة ان السجن مصيره ، وكأنه حقيقة قديمة يعرفها كالموت ، فلم يقاوم . ترك جسده مرتخيا في قبضة اليد الحديدية . تدرّب في سنوات الاسر ان ارتخاء الجسد يضعف التوتر . مسام الجلد متمدّد وتتفتح ويخرج من عينيه واذنيه وانفه وفتحة الشرج . ويصبح كل شيء اقل ضراوة . الضرب اقل ضراوة ، والنفخ اقل ضراوة والكي بالنار (قبل اكتشاف الكهرباء) اقل ضراوة .

ويسقط جسده مرتخيا فوق الارض ، يتمدد بكل قدرته على التمدد ، وتجري من تحته ذيول رفيعة من الدم ، تدخل شقوق الارض وفوق الجدران بقع سوداء كالدم ، كل بقعة على شكل خمسة اصابع وكفه ملايين البقع ، من كل عمر ومن كل جنس . اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر . ولكل واحد بقعة مميزة خاصة به .

نهض حميدو يستند على الجدار ، وطبع بصمته فوق الاسمنت كالختم (المحكوم عليهم جميعا امثال حميدو يختمون على محاضر البوليس بهذا الشكل) وتمتد الاصابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق المحاضر • ملايين المحاضر بعضها فوق البعض ، متكدسة كأجساد الموتى في يوم الحشر (قبل اكتشاف الاتوبيس) اجساد مرصوفة في خطوط افقية مصفوفة في وضع عكسي ، الرأس بجوار المؤخرة ، والمؤخرة بجوار الرأس ، مترابطة في كل شبر من الارض او السقف ، متلاصقة بغير مسافات ولا مساحات خالية تسمح بمرور الهواء او امتداد الساق او الذراع •

اغمض حميدو عينيه وفتح فمه وتأوه • تبعه الآخرون بصوت مماثل • ارتفعت ملايين الاصوات في الفضاء المظلم وصنعت صمت الليل • ضغط الصمت بكثافته وثقله على أذنيه ففتح عينيه ورأى في وجهه القدمين المشققتين • عرفهما على الفور وهمس بصوت مقلد صوتها : حميدة • لكنها لم ترد ، كانت ميتة ، جسدها ممدود فوق الارض ، ووجهها ناحية السماء ، يسقط عليه ضوء القمر الابيض ، فيبدو مستديرا متورما كالمثانة المنتفخة •

فتحت فمها وتأوهت (بسبب ضغط البول) • ارتفعت

ملايين التأوهات في الفجر وصنعت النسيج الوطني •
(كانوا يسمونه النشيد الوطني) •

سمع حميدو النشيد فأدرك ان النهار طلع • جرّ
ساقيه من تحت الحزام الحديدي ومار الى دورة المياه •
المكان الوحيد من العالم حيث يشعر بالتفاؤل ، ويتبادل
من وراء الحائط بضع كلمات ، وينبعث من نصفه الاسفل
خيوط البول ، رفيعا ومقوسا كقامته ، ونفاذ الرائحة
كرائحته ، فيشعر بمرح مفاجيء ، ويرمق من حوله خيوط
الماء الصفر تلمع في الضوء كأقواس النصر فيضحك مقهقهها •
ترتفع القهقهات من دورة المياه ، قهقهات عالية ،
ملايين القهقهات ، فالاعداد تتزايد يوما بعد يوم ، وكل
الاجهزة يمكن أن تتعطل في ذلك الوقت الا الاجهزة
التناسلية والاجهزة اللاسلكية بطبيعة الحال •

ويسري الصوت كما يسري أي صوت وبالسرعة
نفسها (عن طريق أحد الاجهزة) ، ويدخل الاذنين الكبيرتين
كالحصاة المدبية ، ويرتفع الاصبع النظيف ذو الظفر
المشذب ويسلك الاذنين ، وتسقط الحصاة المدبية في
كفه السمينة المكتظة باللحم ، فيرفع عينيه في عيني الموظف
المختص ويقول : أضحكون ؟ ••

ويخفض الموظف عينيه كمادة الموظفـين في حضرة سيده : لا يا مولاي ، يبولون فحسب .

حميدو كان لا يزال واقفا في دورة المياه ، وخيط الماء لم ينقطع بعد ، حين رأى الموظف مقبلا يفتش ، شعر بالخوف . والخوف كالموت كائن عضوي من لحم ودم ، سحب الدم من رأسه وذراعيه وساقيه وأحشائه الداخلية ، وتجمع في نقطة واحدة أسفل البطن ، انتفخت وتمددت كالمثانة . وكان الموظف لا زال واقفا أمامه ، فاتحا ساقيه في غطرسة ، شاخصا في عينيه بشجاعة الموظفـين في غيبة سيده ، وفمه مفتوح ، ولثته متقرحة مصابة بالبيوريا (كلثة سيده) .

وشعر بألم حاد أسفل بطنه . وتلفت حوله . كانوا بضيقون الخناق عليه ، والاجساد تضغط عليه من كل جانب ، بغير مسافة أو مساحة خالية . ولم يجد مكانا خاليا سوى الفم المفتوح المتقرح ، فصوب نحوه شريط الماء ، وأفرغ الخوف كله من جسده .

فتح حميدو عينيه ، وأحس من تحته البركة ، دافئة كجسده ، نفاذة الرائحة كحياته . أدرك انه لا زال حيا ،

وتفتحت شهيته للاكل • مدّ يده في الصحن فانتفضت
ملايين الحشرات السوداء الصغيرة وهاجت من حوله في
مرح ، بعضها يطير ، وبعضها يجري ، وبعضها يزحف •
التصق بعضها بالسقف ووقف على الجدران ، ودخل
آخرون الشقوق وبقيت واحدة في كفه •

نظر بين ساقها ورأى الجرح القديم المسدود فأدرك
انها أنثى ، وانها ميتة • ضغط عليها بالكف الاخرى فماتت
مرة أخرى • طرقت أصابعها الميتة فالتقط جهاز التسجيل
صوت الطرقة • (كان هناك جهاز للتسجيل من آخر
طراز بحجم الحمصة ثبت في عضو من جسمه) • طرقت
أصابع قدمه اليمنى بكبرياء وزهو • حركته في التاريخ لها
أهمية • والاهمية هي سبب ذلك الذعر الذي يراه في
عيون موظفي الدولة ، حين تصوّب نحوهم العدسات
المفتوحة ، فاذا بأي حركة تصدر عنهم تدخل التاريخ على
الفور ، وان كانت مجرد طرقة اصبع (بسبب تيبس
المفاصل بعد الاربعين) ، أو اصبع يرتفع ليهش ذبابة
وقفت على الائف •

هزّ أصابع قدمه بحركة مبتكرة • انه رغم كل شيء
يحب الاصالة ويكره التقليد • كم سجل التاريخ ركاما من

الحركات المقلدة غير الاصلية كحركات القروء ، ووجوه
وأصابع متشابهة مكررة كلها تقليد في تقليد • ركام مكديس
بعضه فوق البعض ككوم السباخ • كل يوم ترقد البقرة ،
وفي الفجر تدخل أمه تلمّ الروث ، ثم تجمه تحت الشمس
بعضه فوق البعض ، وحين يجف في اليوم التالي يصبح
راسخا في التاريخ •

ظهر العسل الاسود متجمدا في قاع الصحن ، واستقر
في قاع معدته كقطعة من القطران • قضم قطعة بصل
وأصلح بها طعم العلقم • أشعل قطعة تبغ وملا بالدخان
صدره وبطنه فشرع بما يشبه الشبع ، وتجشأ بصوت عال
ينمّ عن الثقة بالنفس • (الذكور فقط هم الذين كان
يحدث لهم ذلك) •

سمعت حميدة الصوت • تعرفت فيه على رائحة
التبغ • كانت تشتريه من الدكان لايها أو أخيها أو خالها
أو عمها أو أي رجل من الاسرة • وناولها البائع قطعة
حلوى ، تضعها في فمها ، وتخفيها تحت لسانها ، وحين
يطالبها بالقرش تفتح يدها فلا تجد شيئا ، وتفتح عينيها
فتجد المصباح كذؤابة الضوء ، تحتضر ثم تموت بنفخة

هواء واحسدة • وتسدّ الظلمة الباب كالجسد الطويل
الضخم الا من ثقبين مستديرين في أعلى الرأس ينفذ منهما
ضوء أحمر بلون الشفق •

• همست بصوت خائف غير مسموع : « من أنت ؟ »
• رد بصوت كصوتها خائف وغير مسموع : « حميدو »
• أغمضت عينيها حتى لا يتعرف عليهما ، تركت ذراعيه
الطويلتين تحوطانها ، وانفاسه الساخنة تدفئها • كان
الفصل شتاء وأذناها الصغيرتان الناعمتان كقطعيتين من
الثلج •

• همس في أذنيها بنفسه الساخن : من أنت ؟ تركت
أذنها تحت فمه ولم ترد • تظاهرت بالنوم وخبأت رأسها
في شعر صدره الغزير • وحينما أحست الاصابع الكبيرة
ترفع عنها الثوب كتمت أنفاسها ، ولم يعد صدرها يعلو
أو يهبط ، وأصبحت ميتة •

• لكن الشمس في الصباح سقطت فوق عينيها • ورأت
الجسد الطويل الى جوارها ، طويلا ورفيعا ومعوجا •
• كتفاه غير مستويتين تشبهان كتفيها ، وأصابع يديه متورمة
متقرحة من ماء الغسل كأصابع يديها ، وأظافره سوداء

كأظافرها • عرفت على الفور انه جسدها فاحتضنته بكل قوتها ، وضغطت صدرها على صدره ، فأحست المحفظة الجلدية تحت ثديها الايسر • كانت جائعة فمدت يديها وسحبت المحفظة بسرعة قبل أن يراها أحد •

اختبأت وراء جدار وفتحت المحفظة • رأت صورتها بالطرحة السوداء تشبه أمها ليلة زفافها ، ووصية بخط أيها يذكره بغسل العار ، وأربعة جنيهاً وبريزة (البريزة هي العشرة قروش في ذلك الوقت) •

أكلت بالبريزة ، واشترت بجنيهين ميني فستان (وهو الفستان المصغر الذي كان شائعاً في ذلك الوقت بين الزوجات المحصنات حتى لا يظهر من أجسادهن المحرمة الا الأذرع والاكنتف والصدور والافخاذ فحسب) • واشترت بالجنيهين الباقيين حذاء له كعب عال رفيع وليس له وجه • (اختفاء وجوه الاحذية في ذلك الوقت كان هدفه الكشف عن طلاء الاصابع الاحمر بلون السدم ، أما الكعب فكان موجوداً ليخفي تشقق أقدام النساء بسبب الخدمة بالبيوت) •

وسارت حميدة في الشارع تتأرجح على الكعب

العالي ، وذراعاها عاريتان ، وفخذاها عاريتان ، وعنقها عار
حتى منتصف ثديها • أصبحت تشبه سيدتها ، ومرت
بحداء الشاويش (الاسم الشائع للشرطي في ذلك الوقت)
فلم يقبض عليها، وتركها تمر امامه مطرقا رأسه وخافضا
عينيه ناحية الارض (كان اسم هذه الحركة « غض البصر »
أمام المحصنات من النساء ، وقد تدرب عليها في سنوات
الدراسة) •

رفعت رأسها الى فوق ، وسارت بخطوات متأرجحة
مهتزة • اهتزت كتفاها العاريتان وظهرت الكتف اليسرى
أعلى من الكتف اليمنى • والثدي الايسر أعلى من الثدي
الايمن (كان ذلك بسبب المحفظة المنتفخة المخفية تحت
الثدي الايسر) • واهتز الردفان أيضا ، واحدهما أعلى
من الآخر •

ابتعدت عن الشرطي بضع خطوات وتحسست المحفظة •
جلدها ناعم كاللعاب يجري فوق أصابع اليد بعد قضمه
فطيرا بالسكر ، وتيار من الدم الساخن يسري من ثديها
الايسر الى بطنها وفخذيها وقدميها ، ثم يصعد الى رأسها
وأذنيها وأنتها ، ويهبط مرة أخرى الى قلبها ، في دورته

العادية المتكررة ، باعثا في الخلايا الساكنة حركة جديدة لها لذة .

حركت فكها العلوي فوق السفلي ومضغت اللذة . ذابت اللذة في اللعاب فابتلعتهما . اختلطت اللذة بالدم ودارت معه من الرأس الى القدمين ومن القدمين الى الرأس . وبدأ رأسها يدور ، فأسندت ظهرها الى عمود نور ، وأسدت جفنيها فوق عينيها ، فأصبح الشارع مظلماً ، والسماء سوداء بغير قمر . سقط الضوء المستدير الازرق فوق وجهها . عرفت على الفور (كان سيدها يطلي فوانيس عربته بظلاء أزرق حتى لا يراه أحد أثناء جولاته الليلية) . فتح بابه وهبط من العربة ، ثم استدار حولها وفتح لها الباب . انتظر حتى دخلت وجلست ، فأغلق الباب ، ثم استدار مرة أخرى حول العربة حتى وصل الى بابه ، ففتحه ثم جلس وأغلق الباب . (كان سيدها قد تدرب على هذه الحركة الدائرية في كلية الآداب) .

انغرز كعبها العالي الرفيع في بساط سميك طري كالعجين فانخلع حذاؤها . وظهر كعباها المشققان فأخفتها تحت الملاءة الحريرية . كان جسدها قد أصبح في وضع

أفقي فوق شيء طري ، أكثر طراوة من العجين ، فارتخى
ردفاها المشدودا العضلات (بسبب طول الوقوف وراء
العمود) ، وبدأ جسدها يغوص في العجين ، القدمان ، ثم
الساقان ، ثم الفخذان ، ثم الصدر فالعنق • ولم يبق الا
الرأس بارزا فوق السطح •

بدأ الرأس يغوص بالتدريج ، الذقن ، ثم الفم ، ثم
الانف • انعدم الهواء ، فانسعت عيناها السوداءوان وملاهما
الرعب • والرعب كائن عضوي من لحم ودم ، تجسد
أمامها على شكل مخلوق غريب مشوه • رأسه انسان
وجسده قرد • رأسه عار حليق أملس ، وصدره غابة شعر
واليتاه كرأسه عاريتان ملساوان تشف بشرتهما عن لون الدم
الاحمر كبشرة وجهه ، وشففتاه حمراوان ، منفرجتان ،
يظهر بينهما لسانه الطويل الحاد كنصل أبيض له حافة
معدنية صلبة ، وفي نهايته ثقب مظلم يكمن فيه الموت •

صرخت صرختها المكتومة غير المسموعة ، وأسدت
جفניה فوق الرعب زحف الرعب الى حلقها (خلال القناة
الدمعية التي تصل العين بالانف) وتكوّر كالغصّة • شدت
عضلات حلقها وبصقته بكل قوتها فانبعثت من فمها وأنفها
وأذنيها خيوط رفيعة كالنافورة •

ضحك سيدها في سعادة الاطفال ، فقفز خده الممتلىء
باللحم وسدّ عينيه تماما • أدركت انه سينام بعد لحظة •
(كان السلام الملكي قد دق معلنا انتهاء الحفل الترفيهي) •
وحيثما ارتفع شخيره في الفضاء فتحت الازرار الذهبية
فوق صدره ورفعت المحفظة الجلدية الثقيلة الضاغطة على
قلبه •

فتحت الباب بهدوء ، وسارت على مهل بخطوات
واثقة • فتحت باب سيارتها بمفتاح فضي لامع كمفتاح
سيدتها • انزلت العربة فوق الاسفلت الناعم كقارب رشيق
يسبح • مرت بجذاء الشرطي الواقف على الرصيف منتصبا
كعمود النور ، فاهتز (كأنما بمس كهربائي) وارتفعت
سبابة يده اليمنى ولامست طرف أذنه اليسرى (حركة
مقدسة في ذلك الوقت ترمز الى حب الوطن) •

أطلت من نافذة السيارة برأسها • سقط ضوء القمر
على وجهها • كان الطريق خاليا الا من أعمدة النور ،
منتصبة على جانبي الطريق في وضع رأسي ، ومن ناحية
اليمين ترتفع الاذرع عاليا ، ومن ناحية اليسار رشق في
كل اذن اصبعاً •

تعرفت على البقع السوداء فوق الاصبع ، فهمست بصوتها الخافت : حميدو ! لم يسمع حميدو شيئاً ، وظل واقفا منتصباً ، رأسه مرفوع نحو السماء ، واصبغه الاسود في أذنه (جميع المسافرين الى الخارج كانوا يرون في مدخل كل بلد هذا النصب التذكاري للجندي المجهول) .

مدت يدها وأمسكت يده . أصابعه كأصابعها والخطوط فوق كفه تشبه خطوطها . أشفقت عليه بحكم المصير المشترك ، وحاولت أن تشني ذراعاه المرفوعة في اعياء . لكن الذراع الحجرية أبت الاثناء وظلت مرفوعة في الهواء . رفعت عينيها الى فوق ورأت العينين الواسعتين السوداوين تلمعان بدمعة حقيقية كدمعة الاطفال . سقطت الدمعة على خدها ساخنة ، وزحفت من زاوية فمها مرة كالعلقم تحت لسانها ، فابتلعتها . سقطت واحدة أخرى ساخنة على خدها ، وزحفت الى زاوية أنفها مرة كالعلقم فابتلعتها . وبدأ الحزن يغزو جسدها من جميع المسام والفتحات ، يدخل أنفها وفمها وأذنيها كمسحوق ناعم ، مدبب الذرات ، كقطع الزجاج المبشور ، تمزق الاغشية الرقيقة التي تخلف الانف والفم والشعب الهوائية ، فتسعل بشدة ، وينز من صدرها سائل أبيض يجري في قناة

طويلة ضيقة تصل القلب بالحلق بالانف بالاذنين بالعينين ،
فاذا بها تمخط لعابا من عينيها ، وتبصق دموعا من أنفها
وفمها وأذنيها ، وكلها يضاء تتخللها شعيرات من دم •

رفعت وجهها الى ضوء القمر • أصبح يياضه شديدا
خاليا من شعيرات الدم ، وملامحه غريبة تشد البصر
لتناقضها الشديد • فالذقن صغيرة مستديرة وناعمة كذقن
طفل ، والجبهة بارزة خشنة مجعدة كجباه العجائز •
الشفتان عذراوان منفرجتان عن حرمان لا يرتوي كشفاه
الزوجات العفيفات ، والخدان بارزان في شراة حادة
لا تشبع كخدود الأزواج المحترمين ، والانف مستقيم عال
في كبرياء ، سفيه كسفاهة المجرمين والخارجين على
القانون ، والاذنان صغيرتان مستكيتتان بغير حركة كأذان
موظفي الحكومة ، والعينان سوداوان واسعتان ، فيهما
نظرة بدائية وقحة مرفوعة الى أعلى وثابتة ، لا تغض البصر
كعيون النساء المحتشمات المطرقات الى الارض حياء من
أفكارهن الوقحة •

ملامح غريبة شديدة التناقض ، والتناقض لشدة
الغربة كان منسجما مع الملامح على نحو متسق مألوف ،

يبلغ من شدة انسجامه واتساقه درجة من الجاذبية غير
المألوفة ، تشد اليها البصر شدا ، كأنما ليس لها وجه واحد
وانما وجهان أو ثلاثة أو أربعة ، أو ان وجهها ليس وجهها
وانما شيء آخر .

شيء آخر مثير للحيرة والارتباك ، والقلق بل
والغضب . فالانسان يغضب بطبيعة الحال حين ينظر في
وجه انسان آخر فلا يرى نفسه وانما عورته ، ويشتد
غضبه بطبيعة الحال أيضا اذا كانت عورته غير مألوفة في
شكلها أو غير طبيعية ، والطبيعي أن يكون للعودة شكل
مخجل مخل بالشرف ، وأن يكون لها رائحة نجاسة
(كرائحة العرق أو البول أو غيرها من افرازات الجسد
السامة) ، ولكن أن تكون الرائحة طيبة معطرة فهذا هو
الغريب ، لان الجسد في تلك الحالة يحتفظ في جوفه
بالعرق والسموم ، فيصبح الجوف عفنا تفوح منه رائحة
النجاسة ، أما الوجه فيظل نظيفا أبيض تكسوه ملامح
النبيل وعراقة الاصل (وغيرهما من السمات الرفيعة التي
تظهر بوضوح على وجوه النبلاء أمثال سيدها) .

وتحرك وجه سيدها نحوها وهي واقفة في ضوء

القمر . ظلت عيناها في عينيه سوداوين واسعتين مفتوحتين
لا تغضان البصر . أراد أن يبصق في وجهها من شدة
الغضب . لكنه كان قد تعود أن يكظم الغضب ، فأصبح
الغضب لا يحرك في وجهه الا عضلة صغيرة عند زاوية
أنفه ، تنقلص فجأة ، وتشد شفثيه في انفراجة ، تبدو
للعين المجردة كالاتسامة .

لم يكن لديها موعد آخر فصعدت الى السيارة ،
مرّت السيارة من أمام بيته الرئيسي في الزمالك . رأت
سيدتها تطل من النافذة العالية المزركشة . كان رأسها
بحجم الدبوس (بسبب الارتفاع الشاهق) ، لكنه رآها
فأخفى وجهه بيده اليمنى وداس على البنزين بقدمه اليسرى
فانطلقت السيارة ولم يره أحد . سار على مهل في شارع
النيل واجتاز الكوبري ، فأصبح على مشارف حي بولاق ،
حيث بيته الفرعي (كان لكل زوج محترم في ذلك الوقت
بيت فرعي الى جانب البيت الرئيسي ، ويزيد عدد بيوته
الفرعية كلما زادت درجته) .

وتجرد من ملابسه بسرعة (كعادة المشغولين بأمور
هامّة) ، ثم رفع قدمه ووضعها على طرف السرير ، وبقيت

انقدم الثانية فوق الارض (كان قد تدرب على الوقوف على ساق واحدة في سنوات الخدمة العامة) • تصادف في هذه اللحظة أن حركت رأسها ناحيته فلم تجد آلة القتل وانما الجرح القديم المسدود • كان يمكن أن تتسع عيناها السوداوان في دهشة • لكن شيئا لم يكن يدهشها، فحركت رأسها ناحية الحائط بغير اكتراث • رأت فوق الحائط سيدتها بملابسها العسكرية داخل اطار مذهب ، وعيناها شاخصتان فوق الكتلة العارية ، تتابعان حركتها بنظرة الحكام الوقورة المتجهمه ، وتلتقطان الصور من جميع الزوايا (ملحوظة : حفظت هذه الصور في أرشيف المخابرات المركزية) •

وأصبح وجهها معروفا ، حين تطلّ من نافذة العربة تلتوي ناحيتها الاعناق حانية الرؤوس بطبيعة الحال • وأصبح وجهها فوق الجدران ، في ناصية كل شارع ، حيث كانت تقف تنتظر ، وأحيانا حين يطول بها الانتظار ترفع رأسها الى فوق ، وترى صورتها معلقة ، شفتاها منفرجتان في ابتسامة عريضة ، ومن بينهما (عند ركن الفم) ، خيط طويل أبيض من اللعاب الدافىء يجري صاعدا الى زاوية الانف ثم يدخل في الركن بين الانف والعين •

وتمسح البلولة من فوق وجهها بكفها ، ثم تمسح
كفها في الجدار ، وترتسم على الجدار الكف وخمسة
أصابع آدمية ، تهبّ عليها نسمة الليل ، وتطلع عليها
الشمس فتجف وتصبح بقعا سوداء بلون الدم القديم •

سقطت أشعة الشمس فوق عيني حميدو وهو نائم في
وضع رأسي بجوار الجدار • فتح عينيّه ورأى الكف
والاصابع السوداء الممدودة • أصابعها كأصابعه والخطوط
فوق كفها تشبه خطوطه • انفرجت شفتاه هاتفا : حسيده !
وشدّ آلة القتل بحذاء فخذه ، لكن رأى المفتاح الفضي
اللامع يتدلى من بين أصابعها ، فأدرك انها سيدته ، وأخفى
الآلة في جيبه في لمح البصر ، وتركها تتدلى مرتخية وراء
فخذه ، ووقف في مكانه منتصبا ، عضلات ظهره مشدودة ،
وذراعه اليمنى مرفوعة ، وجفناه مرتخيان متدليان فوق
عينيّه كالحجاب •

حين ابتعد صوت العربة رفع جفنيه ، ورأى مؤخرة
العربة المدبية تشقّ الظلمة ، ثم ابتلعنها الظلمة • ترك
عضلات ظهره ترتخي ، وذراعه تهبط ، وشعره براحة ،
فملاً صدره بهواء الليل ، وحاول أن يتذكر وجهه وهو

طفل ، وشكل ملامحه حين كان يتنسم أو يضحك ، فلم يتذكر شيئا • لم تكن هناك طفولة ولا ابتسامة ولا ضحكة •

• سمع وقع قدميه الثقيلتين فوق الارض : يمين • شمال • يمين • شمال • لب • دب • لب • دب • الضربات البطيئة المنتظمة ، تتخللها مسافات من الصمت الاسود بلون الموت • سعل وبصق على الارض البصاق المدمم • سقطت الخيزرانة الرفيعة على ظهره ولسعته ، فأدرك انه عار وانه لم يمت بعد • فقد تفاؤله وبصق مرة أخرى • سمع الصوت الأمر المألوف فشدّ الآلة من الجراب الاسود • نظر بعين واحدة في الثقب ، وحدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين • صاح الصوت الخشن : اضرب • ضرب •

سقط الجسد الطويل المعوج ، وفي منتصف جبهته البارز ثقب يجري منه خيط طويل من الدم ، يخترق العينين والخدين والانف والشفتين ويدور حول الذقن الصغيرة المستديرة كذقن الطفل •

لم يكن طفلا واحدا • وانما آلاف الاطفال أو ملايين ، أجسادهم سقطت فوق الاسفلت وفوق وجه كل منهم خيط طويل من الدم يجري من العينين الى الاتف

والفهم وبالعكس • والشمس سقطت فوق الاسفلت ،
والسماء أصبحت زرقاء صافية وظهر فيها بوضوح الآلهة
المكدسون الجالسون صفوفًا ، ساقًا فوق ساق ، يدخنون
الزرجيلة •

مدّ حميدو ساقه فارتطمت بساق أخرى • مدّ ذراعه
فارتطمت بذراع أخرى • أصبح غارقًا في بحر من الاجسام
الميتة • بدأ يسبح بذراعيه وساقيه في الخضمّ الكبير •
توقف لحظة ليلتقط نفسه ، وتلفت حوله ليعرف أين هو
أو من الذي أتى به الى هنا • لم يتذكر شيئًا سوى انه
كان طفلًا ، وان قبضة يد قوية اندفعت في ظهره ، وقذفت
به في البحر • رأى اليد مرسومة فوق الجدار • الكف
الكبيرة ككف أبيه ، والاصابع متورمة مشققة كأصابع
أمه • انفرجت شفثاه وهتف : أمي ! نظرت اليه أمه بعينيها
السوداوين ، والطرحة السوداء على رأسها وعنقها
وكتفيها وبطنها •

كانت واقفة بقامتها الطويلة لا تتحرك وصدورها
العالي ثابت بحذاء رأسه • وضع رأسه على صدرها ، ودفن
أنفه بين ثدييها • أبعدته أمه بيدها القوية ، فرفع رأسه

اليها ، ورأى عيني أبيه الواسعتين تلمع فوق بياضهما
الكبير الشعيرات الحمراء كالثعابين الرفيعة ، وسمع صوته
الغليظ : العار لا يغسله الا الدم .

اقترب من أبيه ، وعيناه ثابتتان في عينيه لا ترمشان .
ارتجفت الشعيرات الحمراء فوق البياض الكبير (الانسان
يفزع اذا ما رأى عينا مفتوحة تنظر اليه دون أن ترمش .
معنى ذلك انها تفحصه جيدا لتراه على حقيقته) .

تراجع أبوه خطوة الى الوراء فسقط ضوء المصباح
على وجهه . رفع كفه الكبيرة وأخفى وجهه ، لكن الضوء
كان يكشف جسده الطويل الضخم وهو واقف يسد
الباب . نفخ ذؤابة الضوء فانطقت ، وأصبحت الظلمة
شديدة ، الارض كالجدار كالسقف . فتعثرت قدمه الكبيرة
الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء . لكنه استعاد
توازنه ، ووثب كالفهد على أطراف أصابعه المطاطية ، ثم
سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (الحداء
بلغة أهل الريف) .

صرخ حميدو بصوت الاطفال ، لكن جسده لم يكن
جسد طفل . وامتدت يده في جيبه الطويل كالجراب ،

وشدّ الآلة المعدنية الصلبة • حدد النقطة في منتصف المسافة بين الدائرتين البيضاوين تلمس فوقهما الخيوط الحمراء • كنم نفسه وأغمض عينيه وضغط على الزناد •

فتح عينيه ورأى الجسد الطويل المعوج ممددا تحت الشمس • عيناه الواسعتان مرفوعتان الى أعلى وذراعه اليمنى متدلّية الى جواره تقبض على شيء • فتح حميدو أصابعه ، فسقط القرش في كفه • أغلق عليه يده ، وذهب الى الدكان ليشتري تبغا • اشترى قطعة من الحلوى ووضعها في فمه • استدار ليعود ، لكن البائع طالبه بالقرش • فتح يده المغلقة فلم يجد شيئا • أمسك البائع العصا وجرى خلفه •

كان جسده خفيفا صغيرا يطير في الهواء كأجساد العصفير ، وكان من الممكن أن يسبق البائع (لو كان عصفورا) ، لكنه أحس فجأة (وكما يحدث في الاحلام) ان جسده أصبح ثقيلًا كأنه تحجر على شكل تمثال ، تسمرت قدمساه في الارض ، وثبتت ذراعه بالحديد والاسمنت ، والفخذان أصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّ الى ناحية ، ودقّ في كل قدم مسمار كالمصلوب ، وارتفعت

العصا الرفيعة من الخيران في الجو ، طويلة ورفيعة
ومعوجة كالقوس ، ثم هوت على شيء طري ساخن
كاللحم الحي .



حين فتح حميدو عينيه، كان ضوء النهار يملأ الغرفة .
وأيقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز من فوق الحصيرة
وجرى الى الشارع . كان أصدقاؤه من أطفال الجيران
يلعبون كعادتهم في الحارة الممتدة أمام البيوت الطينية ،
يمسك كل منهم يد الآخر ويصنعون دائرة تلف وتدور ،
وصوت غنائهم الحاد الرفيع يدور مع حركة أجسادهم في
أغنية واحدة ، لها مقطع واحد ، يتكرر في دورة متصلة
لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد

سمته عبد الصمد

سأبته على الانايا

خطفت راسه الهدايا

حد يا حد يا بوز القرد

ولأنهم يدورون ويعنون بغير انقطاع ، فلا يمكن
للاذن أن تعرف بداية الاغنية من نهايتها ، ولا يمكن للعين

أن تعرف بداية حركتهم من نهايتها ، لانهم أطفال ، ولان
الاطفال حين يلعبون يمسكون بأيديهم بعضهم البعض على
شكل دائرة مغلقة .



ولكن لا بد لي أن أنهي القصة ، فكل شيء له نهاية،
لكن نقطة النهاية في هذه القصة لا أستطيع تحديدها .
فالنهاية لا تنتهي بنقطة محددة ، لان النهاية في حقيقة
الامر غير موجودة ، أو ان النهاية والبداية يتصلان في
خيط واحد دائري من الصعب تحديد أوله من آخره .

ومن هنا الصعوبة في انهاء شيء ، وبالاخص اذا
كان قصة حقيقية ، أي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة
غاية الدقة . والدقة تقتضي من الكاتب أو الكاتبة أن يراعى
كل حرف ، وألا يهمل أي نقطة . ان نقطة واحدة قد تقلب
كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية . الذكر
قد يصبح أنثى بسبب نقطة أو شرطة ، والبعل يصبح بغلا ،
والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا أهمية النقطة الدقيقة المحددة . أي النقطة
الهندسية . وبمعنى آخر ، لا بد من دقة علمية في العمل
الفني الجيد . لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هو

بالضبط ما أردته في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية . لان الحياة قد تكون ميتة في بعض الاحيان ، كالانسان الذي يمشي على الارض دون أن يعرق ، أو دون أن يبول ، أو دون أن ينبعث من جسده شيء فاسد . لا يمكن للانسان الحي أن يجبس فساده في داخله ، والامات ، وأصبح وجهه أبيض ناصع البياض ، وجوفه عفونة الموت .

خيل اليّ (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ، ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور ، خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل أن يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عينيّ حركته . وحين توقفت كان قد أصبح بالقرب مني . ورأيت وجهه . لم يكن طفلا ذكرا . كان أنثى . لم أعرف عن يمين انها أنثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز ليس لها جنس .

• الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ •
• كان مألوفا بدرجة أثارت دهشتي الى حد عدم التصديق •
فليس من المعقول أن يخرج الانسان من بيته في الصباح
ذاهبا الى عمله ، فاذا به يصطدم بشخص آخر ، ما أن
يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو وليس أي وجه آخر •

أعترف ان جسدي ارتج • نوع من الذعر شديد ،
يشلّ قدرة الانسان على التفكير • ومع ذلك فكرت : لماذا
يدعر الانسان حينما يرى وجهه وجها لوجه ؟ ربما هي
الغرابة الشديدة ، أو ربما هي الالفة الشديدة • حينئذ
يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة
متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح أبيض ، والابيض
أسود • ومعنى ذلك أن يواجه الانسان بعينه المفتوحتين
حقيقة انه أعمى •

— تمت —